طاهر لاشین

حوّاء بلا آدم

الإهداء

عزيزى الدكتور حسين فوزى*

لست أدرى عند أى خط من خطوط الطول أو خطوط العرض من ذلك المحيط الهندى الهائل ستصلك قصتى هذه . ولكن الذى اعلمه يقينا انك ستكون فى شغل شاغل حتى عن استلامها . . . ربما . . فإما على ظهر السفينة وفى أقصى نشاطك البدنى ، وإما بقمرة المعمل وفى أقسى نشاطك الذهنى ، تبذل جهد الجبابرة لأداء ذلك الواجب الجبار الذى أقدمت عليه أيها السندباد . وقد تكون فى ساعة راحة من العمل الرسمى وقد اذت بركن هادىء من أركان السفينة تبدو للرفاق منك

---

* مدير إدارة الاحياء المائية . وأحد أعضاء بعثة السير مرى Murray التى ترتاد الآن المحيط الهندى

الطمأنينة والهدوء على أنهم لا يعلمون أنك وقتئذ تكون أشد توثباً وأعمق تفكيراً . . فى لانهاية المحيط ترسل نفسك . . . نفس الوطنى الذى يتجشم من أجل الوطن ، ونفس الأديب جم الخواطر والتأملات ، ونفس الفنان مرهف الحس لما فى الطبيعة من جلال وجمال . فاذا ما اصطخب الماء ، وزمجر الهواء ، دفعت إليهما بروح عصاف عساف ثائر على كل بال بليد . من أجل هذا وددت أن أهدى إليك قصتى هذه ، لعلك تجد فى قراءتها فترة أيناس وراحة ، ولتذكر بها

صديقك المخلص

طاهر

المقدمة

أراد الأستاذ طاهر لاشين أن يبتدع أسلوباً جديداً في كتابة المقدمات ، فلم يلجأ في ذلك إلى كاتب كبير يستظل باسمه أو أديب ناشئ يرقى مدارج الشهرة بمؤلفاته ، وإنما عمد إلى صديق ليس له جمهور وصديق ان هو عالج الكتابة والنقد حيناً وأكب على القراءة في أحايين كثيرة فانه يفعل ذلك من غير أن يرجو شهرة أو يكون له مطمع

إلى هذا الصديق قصد الاستاذ طاهر لاشين ، وهو واثق من شيء واحد : أنه يقصد رجلا عرف فنه القصصي منذ نشأته وهو يفهمه ويقدره كل التقدير وهو في الوقت ذاته لا يسكت عن المعايب

والواقع أنى كنت دائم الاتصال بالاستاذ طاهر لاشين منذ أقبل على فن القصة . وشاهدت مقدماته الأولى فى سنة ١٩٢١ وتابعت قصصه التى أدت إلى روايته القصصية الحاضرة . ولقد ظهر منحى الأستاذ طاهر لاشين وتبينت فى قصصه الأولى كل العناصر التى نتذوقها فى « حواء بلا آدم » وليس أدل على صحة هذا القول من الرجوع إلى مجموعة القصص الأولى التى أطلق عليها اسماً ذا معنى هو سخرية الناى . ثم مجموعة القصص الثانية التى أسماها ببساطة . « يحكى أن »

فى « سخرية الناى » نجد الكثير من روح السخرية حقاً ونجد الكثير من الدعابة البريئة من السخرية ، أما نغمة الناى — تلك النغمة الحزينة الشديدة الحنو الدائمة الاستسلام — فلا نجدها إلا نادراً

وأما ما كسبه الأستاذ طاهر لاشين فيما بعد فهو إهتمام باختيار الموضوع واشتداد قبضته على أسلوبه وتلك المرونة الفنية التى تفرق بين الأديب المتمكن والأديب

الناشىء . .

ولكن هذه النغمة — أى نغمة الناى — كثيراً مانسمعها فى المجموعة الثانية التى نرى فيها تقدما عظيما فى الفن القصصى ، ولسنا نريد بذلك أن الأستاذ طاهر لاشين ابتدأ ضعيفاً فى فن القصص ، ثم تقدم تقدماً سريعاً ، ولو أردنا هذا القول لما كان عيباً ، فالكثيرون من كبار الكتاب تعلموا فنهم بعد مشقة وجهد ، وأمضوا فترة طويلة فى المران على صنعة الكتابة قبل أن يصير لهم جمهور ، وهذا أمر لا ينتقص من فنهم فى شىء على أن الأستاذ طاهر لاشين لم يكن من هؤلاء فان مجهوده الأول فى القصة ، ولعلها قصة « فى قرار الهاوية » . كان مجهوداً بارزاً جعله فى طليعة كتابنا القصصيين ولم يكن عليه إلا أن يستمر ، وقد استمر ، ولكن ذلك لم يحل دون أن يتقدم فنه بالنسبة لمجهوداته الأولى ولن نسوق برهاناً على ذلك أدل من قصة « منطقة الصمت » التى نشرها فى مجموعته «سخرية الناى» فأعجب بها أصدقاؤه

كل الأعجاب وهى تعتبر من خير قصص المجموعة الأولى، وأعاد الأستاذ نشرها لأمر ما فى مجموعته الثانية ولسنا نستطيع أن نقول بأنها من خير القصص فى هـذه المجموعه الأخيرة

يقوم فن الأستاذ طاهر لاشين على الفكاهة أولا وهو يعتبر دائما فى طليعة كتابنا الفكاهيين وفيه كل الصفات التى نراها فى عظماء كتاب الفكاهة ، وفيه كل نقائصهم ، ولقد أشرنا إلى السخرية التى نراها فى قصصه ولكن السخرية ليست أساس فكاهته بل أن فكاهته من النوع البرىء المرح الذى قد يبعث على الابتسام أو الضحك ولكنه لا يبعث على الاحتقار ونشعر من فكاهته أن الكاتب يشفق على مخلوقاته ويحبهم ويريد منك أن تشفق عليهم وتحبهم وهو لا يهزأ بنقائصهم بل يلتمس لهم الأعذار ، وينتحل لهم المبررات ، ويحاول أن يدفعك إلى غفران الذنوب ، ولو أردنا تشبيهه بكاتب من كتاب الأدب الأوربى لقلنا أنه أقرب إلى « ديكنز » الكاتب

الأنجليزى الفكاهى العظيم منه إلى «ثيكرى» الكاتب الأنجليزى الفكاهى والعظيم إيضا

وقد يكون من الطبيعى — وإن بدا هذا القول لأول وهلة غريباً — أن يكون الأستاذ طاهر لاشين من أمهر العازفين على الأوتار الحزينة . ولكننى أعتقد أن بين الفكاهة و بين الحزن صلة إن تكن خفية فهى بعد موجودة وهل نستطيع أن ننسى أن خالق «بيكويك» الخالد هو أيضا خالق « نللى » الفتاة المسكينة و «أوليفر تويست» ربيب الشقاء ؟ والواقع أن كل ذلك متوقف على طبيعة الكاتب ، فالكاتب لايستطيع أن يتعمل الفكاهة أو الحزن واو فعل لكانت مجهوداته سقيمة لاغناء فيها فالمسألة إذن متوقفة على طبيعته — على قلبه — والقلوب الكبيرة المتفائلة ، الدائمة الدعابة ، السريعة الضحك هى دائما سريعة التأثر بالأحزان ، والرثاء لكوارث الحياة ، وهى التى يسرع الدمع إلى ما آقيها

فلفن الأستاذ طاهر لاشين جانبان ، أولهما وهو

الغالب عليه ، جانب الدعابة البريئة والثانى جانب التأثر والشفقة ولكنهما تأثر وشفقة لايذهبان بعيداً ولا يدفعان إلى الثورة بل هما تأثر المتفائل بالحياة وشفقته ، فالحياة خلقت من نعيم وشقاء ، وأناس الأستاذ طاهر لاشين ينعمون ويشقون لأنهم جزء من الحياة وهم يرجون الأجر والثواب أن لم يكن فى هذه الحياة ففى الحياة الأخرى وتلك الاستكانة فيهم تحملنا على أن نكون أقرب إلى محبتهم وان لم تدفعنا إلى احترامهم

ولذلك لا نجد فى فن الأستاذ طاهر لاشين تلك الألوان المظلمة التى نجدها فى فن بعض الكتاب الأوربيين ولا يجب أن نلومه على ذلك ، فليس ذلك مجاله ، وليس من طبيعته ، والواقع أن هذه الألوان المظلمة لم تظهر بعد فى الفن القصصى المصرى وقد نغتبط لهذا الأمر ففيه دليل على أن الشقاء الاجتماعى لم يبلغ فى هذا البلد حداً يدفع الى اليأس والتمرد أو هو بلغ هذا الحد ، ولكن البركان لا يزال ساكناً

ولـكن اذا كان الأستاذ طاهر لاشين خلا لحظة من تلك العوامل التى توقفه على أعماق الشقاء وتلقى على الحياة نقاباً أسود فهو مع ذلك ذو نفس بوهيمية وقفت على دقائق الشقاء البهج والأعمال الراضية والجوع الباسم ومن هنا كان وصفه للحيـاة الفقيرة دقيقاً وحياً و نافذاً ، وتجد أمثلة طريفة فى أكثر قصصه ولعل الأقرب الينا أن نقتبس مثالا من رواية « حواء بلا آدم » فاقرأ هذا الوصف البديع :

« وكان الحاج فى حالة طبيعية بحتـة ، وكان مخلداً الى غرفته . ومعنى هذا الاخلاد أن يكون دائم الحركة ذهاباً وإياباً وانحناء واستواء حتى ليحسبه الرائى مأجوراً أجراً حسناً على إحداث أكبر مقـدار من الفوضى فى محتويات هذه الحظيرة. ومحتوياتها شتى ومتنافرة ،الجدير بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش الأرز تمادى به الزمن والاستعمال حتى تـكتل وتصلب وعلى السرير كتب وخبز ومرآة عديمة الشـكل وعمامة

الحاج اذا لم تكن فوق رأسه ، ومنشفة للوجه لا تجد الأنف بين قطوعها مكاناً الا بالمهارة والحيلة . أما اللحاف فقد يحتل جزءاً من فراغ النافذة ، وأما الوسادة فلها رحلة النهار والليل ففى الليل تؤدى عملها كاحدى بنات جنسها وفى النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج فوق الفراء الذى تنعم به عليه « الست الكبيرة » كل عام . وفى إحدى زوايا الغرفة حبل مشدود ينوء بحمل من ملابس لم يعد الحاج يستعملها إشفاقاً على نفسه وعليها . إنما يحتفظ بها وفاء لعهد السنين الطوال التى قضتها فى خدمته . أما الجبة والقفطان الحاليان فلهما مسمار خاص . على أنه ليس بالمسمار الوحيد ، بل هناك كثير غيره : فواحد تتدلى منه زجاجة ، وفى الزجاجة زيت . وثان يحمل مصباحاً والمصباح هباب على الحائط ، وثالث لجراب فيه المصحف الشريف ورابع وخامس . . . . وخامس عشر . وفى كل مكان صناديق من ورق أو صفيح محكمة الغلق ليس من يدرى سوى الحاج مافائدة

الهواء المحبوس فيها »

على أن فنه لا يخلو من النقائص التى تكون أبداً ملازمة للكتاب الفكاهيين ، أعنى الميل الى المبالغة والى الألوان القوية التى تظهر شدة التناقض ؛ ولكن الأستاذ طاهر لاشين يشعر بهذه المعايب ولا يستطيع التخلص منها فيخفيها فى أكثر قصصه بمهارة بحيث تنسجم ولا تظهر إلا للعين الفاحصة ويساعده على هذا الخفاء أسلوبه البديع المبتكر ولعل أكبر نعم الأدباء المجددين على الأدب فى عصرنا هذا هو الأسلوب الذى بدأ ينمو على قواعد جديدة ويقوم على أسس صحيحة فقد ذهب الزمن الذى كان الكتاب فيه لا يطمحون الى غير بلوغ مرتبة كاتب من الكتاب الأقدمين ويحاولون عبثاً محاكاته بالتقليد فاذا ما بلغوا شيئاً من ذلك اعتبروا أنفسهم فى مرتبة الأدباء ، أو اعتبرهم الناس ، أما اليوم فنحن نفهم غير هذا ، أو أن أكثرنا يفهم غير هذا ، على الاقل كتاب الشباب . فالغرض الذى يقصدونه هو الابتكار لا التقليد ، وهم يقرأون

الكتب القديمة لا على أن يتخذوها مثالا ، بل على أن يقفوا منها متفرجين ، لأنها تمثل عصراً ذهب وانقضى وتمثل زمناً كانت وسائله محدودة وحضارته مهما قيل فيها فهى لم تبلغ قط مبلغ الحضارة التى نعيش فى كنفها أعنى الحضارة الأوربية

واليك كاتباً من كتاب الشباب ذوى الآمال الجديدة الطموحة ، يتقدم بعمل جديد ، فاقرأه ، واحكم الى أى مدى أصاب فى غايته .

حسن محمود

هواء بلا آدم

— السلام عليكم يا أبا درش

الفصل الأول

ـــ السلام عليكم يا أبا دَرْش

وكان الحاج إمام يتوقع أن يسمع الرد غليظاً وئيداً ولكنه لم يسمع . فمد عنقه كثير الخطوط المتقاطعة فى عرض القفى ، والمتوازية فى طول القصبة الهوائية ، فنفذت عمامته من فرجة تُباعد ما بين أنياب الأفعى يميناً ، ومخالب الضبع شمالا ، وظهر السلحفاة من أسفل ، وأظافر الوطواط من أعلى . فلم يفلح جهد عينه اليسرى فى اختراق العتمة المتكاثفة . أما العين المجاورة فلم يكن لها جهد تبذله . وأنقذت أذناه الموقف بأن سمع همهمة فهمها فقال ، «حرَماً» وأخرج عمامته . ولولا احتكاك كتفه « بدم الأخوين »

احتكا كما أدركته منه ومضة هلع لقلنا أنه خرج الى النور ، وجلس على مقعد فى سلام

ولما كانت «أبو دَرْش» كُنْية وديّة لاسم مصطفى ، وكانت « حرماً » اختصاراً مألوفاً لقول القائل لمن هو ماض فى الصلاة أو فرغ منها « أُ ـدت بالصلاة فى الحرم الشريف» كنا فى غير حاجة الى غير الذكاء العادى لنعلم أن الحاج امام وجد صديقه مصطفى يصلى فجلس ينتظر فراغه. ولكن الذكاء غير العادى مطلوب لمعرفة كنه ذلك المكان الذى كان فيه مصطفى ! أمغارة هى لاذ بها يقيم صلاته ؟ وساحر هو قد هيمن على الزواحف والضوارى فاتخذ منها حراساً وحجاباً ؟ وكيف يجمع العقل بين حاج ودم وسلام ! ؟

واذا أضفنا ذلك الى أن خرزاً مختلف الألوان ، وأصدافاً متجددة اللمعان كانت تتدلى حول الفُرجة السالفة الذكر ، وأن ستاراً من عشب كشعر العجوز

كان منتشر الذوائب ، تبين وتختفى وراءه ثمار عجيبة لها أسماء أعجب ، يعلو هذا وهذا سمكة هائلة اتخذت من الهواء محيطاً تسبح فيه . . . إذا زدنا ذلك زدنا الذكاء غير العادى تشككا وارتباكا .

على أن الأمر أهون من أن تدوم له الظنون طويلا. فما دمُ الأخوين الا حجر القيت عليه هذه التهمة لمجرد احمرار لونه . وما هذا الا محل تجارة « الشيخ مصطفى التونسى » لبيع كافة أدوات السحر . مما يجمع القلوب ويفرقها ، ويقطع الرزق ويوصله ، ويثبت العقول ويشتتها حسب الطلب : هذا وإن مما على بابه من أعشاب وثمار ماتبيضّ له صحائف « الفار ماكو بيا »

وكانت الساعة الخامسة وقد هان أوار الشمس بعد أن ظل طول اليوم يرهق النفوس ويشوى الوجوه . . وأقبلت عربة الرش منذ حين ، فبالغ الناس فى تعليق سائقها بالقول الذهب والقطع النيكل . والسائق

يبادلهم ذهبا بذهب ونيكلا بماء مدرار اغرق الشارع . وهب نسيم العصر . . فحمل البلل فصار لينا و بليلا . وتنفس الناس الصعداء . . فلا عجب إذن أن يجلس الحاج فى سلام ، وأن يتنفس مع الناس الصعداء . وما ان جلس حتى أسند عصاته إلى باب الدكان ، وضم إليه أطراف جبته. وبعد أن أمرَّ يده على لحيته الفضية بكيفية من يستوثق من وجودها مكانها شرع يهز عنقه و يتمتم بما تيسر من القرآن . ومن فترة إلى أخرى كان يقبل عليه عارفو فضله فيلثمون يده و يسألونه الدعاء . . على أن آخرين من شياطين الحى إتخذوا من عمامته هدفا لنكات وفكاهات.

— وعليكم السلام ورحمة الله و بركاته . . .

ها قد جاء رد التحية . وبرز بائع السحر فجلس إلى صاحبه . وأعاد الحاج قوله « حرماً » فأجابه الشيخ مصطفى بقوله « جمعاً »

وهنا خرست الألسنة المعربدة . ذلك لأن الشيخ

مصطفى كان مهيباً بقوامه الضخم ولحيته المرسلة على صدره بما فيها من مشيب قليل ونزيّه البدوى الأبيض وما أشاع فى شأنه من أن النبي صلى الله عليه وسلم زاره فى المنام يوماً وأمره بإتخاذه . رهيباً بعينيه السوداوين وما تحدقان فيه من عالم الأسرار ، فاشتد أزر الحاج أمام وراح يقول لصاحبه ويُسمع الآخرين :

— نحن فى زمن نعوذ بالله من شره . . اللهم اكتب لنا السلامة من . من زمن ال . . ال . . الأوباش والسفلة . لاحياء ولا إعتبار للسن ولا للعلم . . اللهم لا تؤآخذنا بما فعل السفهاء منا . . .

وكرر الدعاء الأخير ثلاثا . ثم تريث يرجو أن يسمع كلمة صديقه فى نجدته . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، إلا إبتسامة فاترة بدت على شفتى الشيخ مصطفى وهو ثابت كالطود . فزاد الغيظ بالحاج ولم يكن يستطيع أن يعاتبه . لذلك أقنع نفسه بأن الحلم سيد الأخلاق . وعمد

بعد فترة إلى ما جاء من أجله . فمال حتى لم يبق إلا القليل بين صدره وركبتيه ثم قال بصوت خفيض :

— الست تهديك السلام .

فالتفت الشيخ مصطفى إليه نصف إلتفاتة وقال :

— كيف حالها دلوقت ؟

— الحمد لله . .

فتمتم الشيخ بالحمد أيضاً

— البخور الأخير دا . . دا شيء عظيم خالص يا ابنى . . صحيح يؤتى الحكمة من يشاء . . جل جلاله ! !

فأطرق الشيخ يبدى الحياء . ويتمنى لو يجهر « الزبون » بما يقول فيسمع أكبر عدد ممكن من الجيران والمارة . وما من شك فى أن تواطأ روحياً حدث بين الاثنين جعل الحاج يستطرد بالصوت المطلوب :

— دا البخور دا يا ابنى طرد عنها الهواجس . . وشرح صدرها للغاية

فهز الشيخ مصطفى رأسه فى بطء متناه وقال :

ـــ الله يقدرنا جميعاً على فعل الخير

ـــ اللهم آمين

وتكررت عملية الدعاء من الشيخ والتأمين عليها من الحاج ثلاث مرات كل منها أشد من سابقتها ورعاً وإخلاصاً .

ـــ فالست عاوزه منه بخمسة قروش

فقابل الشيخ مصطفى هذا الطلب بالتحديق فى عالم أسراره . وقال الحاج بعد فترة

ـــ وعلى فكرة يامصطفى يا ابنى . . .

وفى هذه المرة بالغ فى الاقتراب من الشيخ حتى كان يحدث أحياناً أن لايجد زر عمامة الاول مندوحة عن أن يشتبك مع لحية الثانى تارة فى ود وأخرى فى رعونة على قدر فتور الحديث أو إحتدامه . وبالغ فى تخفيض صوته حتى صار الأصغاء إليه كالاصغاء إلى تليفون خرب . على

أنه كان يوضح همسه بالأشارات الصارخة . فأمال رأسه على راحته ، أغلب الظن أنه يمثل النوم ، ثم إنتبه ، وحملق بعينيه — يعبر عن اليقظة تعبيراً يحسده عليه كثير من نجوم السينما ، ثم رفع ذراعه جهد إستطاعته حتى سقطت عنه أكمامه فبدا ناحلا أصفر كثير العروق . ثم خفضها بسرعة نحو الأرض لأمر من العبث التكهن به .

وسادت فترة سكوت

— أى والله كدا بالضبط الشافى . . فما قولك فى هذا الحلم العجيب ؟

— الشممة عز . . والنور فرج

— أنا قلت كده كمان . . أو عندك تفسير تانى ؟

— الأحسن تمهلنى يوم أو اتنين

— على راحتك

وشعر الحاج أنه أدى مهمتهُ خير أداء ، فأخرج علبة النشوق من بين محتويات عِبّه الأيمن ، واستل منديله

الأحمر من بين محتويات عبه الأيسر ، ومضى يحدث بأنفه شوشرة كبرى ، ثم شوشرة أخرى وهو يبيح نشوقه لأصحاب الحوانيت المجاورة

وانتهز الشيخ هذه الفرصة ، فغاب فى جوف حانوته واعمل يديه فى صناديق مختلفة حجماً ، متساوية قذارة وصدأ ثم عاد فتبادلا البخور والثمن ، وساد بينهما السكوت إلى أن قطعه الشيخ مصطفى بقوله ،

— وكيف حال الست الصغيرة ؟

— حوا ؟ الله يزدها من نعايته

وكلفه هذا الدعاء أن قارب ما بين معالم وجهه ، ورفع لحيته إلى السماء جهد إستطاعته ثم قال :

— دى يا مصطفى يا ابنى ملاك . كمال ، وأدب ، ورأفة بالمسكين اللى زى حالى (و بعد فترة) يعنى أنا أيه بالنسبة لها ؟ ابن عمة الست الكبيرة .. وعمه مش شقيقه كمان .. مع ذلك فهى تكرمنى كل الاكرام .. الحمد لله

(وقبّل يمناه ظهراً وبطناً) علشان كده ربنا فاتح عليها من جهة المدرسة . ومن جهة بيت الباشا . وهى اشترت النص التانى من بيتهم . . دفعت فيه ثلثماية جنيه

ـــ بيعة مستريحة

ـــ ببركة نيتها ! . . مين من بنات اليوم تعمل كده ؟

ـــ أعوذ بالله

ـــ أدحنا شايفين ، مافيش غير الدلع والفرنجه . . .

وهمّ الحاج بأن يسترسل فى نوبة خطابية ، لأن معانى السخط على مفاسد المدنية الحاضرة تراكضت فى رأسه ، ولكنه اضطر الى الامساك عن الكلام ، ثم الى أخذ عصاته والقيام لأن غيره احتل اهتمام الشيخ مصطفى ، وحاول أن يتم محاضرته لبائع فاكهة مجاور ، ولكن البائع كان منهمكا بالتغنى بمحاسن بضاعته ، فعرج على قصاب ، فاذا به فى شغل بارضاء زبائنه وسرقتهم معا . فأخذ سبيله الى المنزل وهو يتم محاضرته لنفسه .

الفصل الثانى

هو بيت لايلفت النظر ، يقوم فى شارع ثانوى من حى الحلمية . بل لعله يلفت النظر بكونه أصغر بيوت تلك الناحية العامرة بالكثير من القصور ذات الحدائق والعمد والسلالم العريضة الملتوية . قال الحاج امام ان حواء اشترت نصفه الثانى بمبلغ ثلثمائه جنيه . فاذا فرضنا حسن الظن بالحاج ، وفرضنا كذلك تساوى النصفين ، صار من السهل ايجاد فكرة عن البيت . . مدخل مستطيل ضيق الى حد ومعتم الى حد . وغرفة الى اليمين لها نافذة على الشارع ، ومفتاح معلق فى رقبة الحاج امام . والمدخل يؤدى الى صحن غير فسيح ، تغطى الجزء الأكبر منه أرض

الصالة العليا وباقيه الى السماء ، ثم السلم ، فالصالة العليا ، وبها المائدة . وحولها أربعة أبواب لثلاث غرف ودورة المياه . . اما الغرف ، فواحدة للاستقبال — ولها باب ثان يؤدى الى السلم ، وثانية لحواء ، وثالثة للجدة

هدوء فى البيت شامل . لا نأمة ولا صوت كأن ليس فى البيت أحد !

بل الجدة فى غرفتها ، والجدة لا تحدث نأمة ولا صوت ، كأنها لا أحد ! ! .

وغرفة الجدة بسيطة الأثاث ، وكل مافيها عجوز مثلها . . سرير فى الركن الأيسر رفيع القوائم وكانت القوائم . . سوداء ثم ابيضت فى مواضع عدة ، ووهنت مفاصلها فهى ترتعش لأقل حركة . . وكنبة فى الصدر تحت النافذة تضرع الى الجالس ضراعة المرهق وتئن به أنين الموجع حتى ليشفق عليها ويقنع بالجلوس على الأرض أو بالأحرى على بساط لا تكاد الوانه توجد فى «الطيف» وتضيف

الجدة لنفسها فوق البساط فراء هو فراء كبش الأضحية تدبغه بيديها كل سنة أما القديم فتنعم به على الحاج امام وقبالة السرير صندوق كبير من خشب مغلّف بصفيح . وكان على الصفيح نقوش . وكانت النقوش حمراء وصفراء وخضراء ، عدا عليها الصدأ فأفقدها بهاءها..وفى الركن الى يمين الباب طاولة داكنة اللون تستند إلى الحائط استناد المتعَب من طول ماوقفت ، عليها غطاء من خيط مشغول صنعته الجدة أيام كانت لها عيون تمعن النظر، وأصابع تحكم الأبر ، وصبر يطيق تلك التسلية . على أن غرفة الجدة مع هذا نظيفة مرتّبة ليس فيها مالا حاجة اليه ولا ما ليس فى موضعه . . وفيها أبداً رائحة بخور لا يزعج النفس ، بل يبعث فيها معنى الجلال .

وكانت الجدة جالسة على الفراء — بين سريرها والكنبة وأمامها أدوات القهوة لا يلذ لها الا أن تعدّها بنفسها وقد فرغت من احتسائها منذ حين ثم أسلمها

الركود الى النعاس فراحت تهوّم ، وسرت منها العدوى الى قطها فاعتلى الكنبة عند كتفها واستكان

وأرسلت الشمس آخر اشعتها تحيي الجدة النعسانه واسترسل النسيم يغرى بها الراحة وعلى شجر الحدائق المجاورة أسراب العصافير تستبق الأغصان ها مسات كصبية تلعب فى حذر . وفى السماء الزرقاء قطع السحاب تسير الهوينا كأنما تحمل رسالة الرحمة

لئن كانت عيناها المغمضتان تنظران الآن الى الماضى فهى انما تستعرض من حياتها صوراً شتى .. تلك العينان الفائرتان كانتا فى هيئة اللوز ، ولهما بريق وفتنة.. وتلك الخدود المتجعدة كانت فى مثل ايناع الورد ، وهذا الجسد الضاوى كان قواما غضا ريانا بالعافية.. وهذه الروح المستكينة كانت لا تمل النشاط والحركة

ولكن . .

زوجها الذى سيقت اليه لم يعن بجمالها ، ولم يأبه

بأخلاصها له ، ومضى يطيل السهر فتنتظره ، و يعود محمورا فتحتمله ، ويغلظ فى القول فتتغاضى ، ويجحف بحقوقها فكأنما حقوقها كاملة..وكان أول الأمر موظفا صغيراً ولكنه كان لا يؤمن بأن الخط المستقيم هو أقرب بعد بين نقطتين ، وكان يعرف تعاريج الحياة ويجيد خلق الظروف واغتنام الفرَص . فسار فى هذه وإستفاد من هذين حتى علا ، بيد أنه كان طموحا لا يقَر ، ولا يبالى أى الوسائل يتخذ ، ولا أى السبل يسلك مادامت تؤدى به إلى « روما »

وما كان السهر ، وما كان الخمر إلا جداً منه لاهزلا . فهو يهوى إلى موائد من يرى عندهم حاجته ، وهنالك يرتد الفكه المهرج . بهذا تخطى أقرانه الذين أحسنوا الظن بالحكم والأمثال ، فهم إلى مكاتبهم يجدّون لعلهم يجُدوا ، ويزرعون رجاء أن يحصدوا ، ويصبرون منذ قيل لهم الصبر مفتاح الفرج .. وعثر فى بعض تعاريج الحياة على رجل له جاه ولقب ، وله ابنة فاتت سن الزواج ولم تزل

فى سوقه . وكان سكيرا فتحبب إليه بالسكر حتى إنتقلا من صديق وصديق إلى حمىّ ونسيب ! ! على شرط أن يطلّق زوجه الأولى . فطلقها بحجة أنها لم تلد له إلا إناثاً . . وأنه يريد « النسر الصغير »

وكنّ ثلاث بنات صغار . ماتت الأولى بعد الطلاق بقليل ، وكبرت الاثنتان ، فأما الوسطى فتعيش مع زوجها المهندس عيشة تنقّل فى الأقاليم . لا تراها إلا فى الأحلام وفى أيام الأعياد . وأما الصغرى فأودت بها حمىّ وبائية على غير إنتظار . . وخلّفت حواء . . ولم تتجاوز العاشرة . فاحتضنتها الجدة بعد أن تزوج أبوها ، وأغدقت عليها كل ما فى المرأة من أمومة ، وتناساها الأب بعد حين ، فسخت عليها جهد ما كانت تصيب من ريع لها — وكان قليلا — حتى تخرجت من « المدرسة السنية »

فلا عجب إذن إن امتزجت روح الجدة بروح الحفيدة . . لا تعيش إلا بها ، ولا تفكر إلا فيها ، ولا

يمنعها الوقت المبكر أو السن المتأخر عن أن تهيء لها أسباب الراحة .

وإن حواء لجديرة بما يحبوها به هذا الملاك الحارس ، فقد أوتيت منذ حداثتها العقل الراجح والخلق الكريم ، وكانت الجدة قريرة النفس بمنزلها . لاترى فى العالم سواه ، فهى لاتبرحه إلا للضرورة القصوى ، ولا يكل من واجباته جسدها الضاوى ، وكان ذلك يستغرق الصباح كله . . ولولا الخادمة وصوتها العالى لكان المنزل دائماً فى صمت عميق . فاذا ما جاء العصر أخلدت إلى فرائها تحتسى القهوة . . وحدها أو مع زائر يفد عليها

تلك حياة قوامها العاطفة . . العقل فيها راكد . . والعقل يأبى الركود ، فاذا حاول أن يرضى الفطرة لم يستطع إلا العمل التافه من التشبث بالتفاؤل والتشاؤم ، وإقامة الوزن للأحلام ، ومن ثم الاتصال بالجن والشياطين ، تُتخذ لهم الأسماء ، وتُسبَغ عليهم المِلَل والنِّحَل والأشكال

والألقاب . ويبايعون السيادة ، فيخضع العقل السقيم لهؤلاء « الأسياد » الذين اخترعهم .

وقد قنعت الجدة من كل هؤلاء « الأسياد » بعفريت صغير من عفاريت السودان ، اسمه « سرور » . . فى ساعة مناسبة أو غير مناسبة ، وفى مكان مناسب أو غير مناسب ، يحدث ما يُدهش ويُخيف ويُخجل ويضحك . . . إما بهذا الترتيب ذاته ، أو بأى ترتيب سواه . . يحدث أن تنتابها أوجاع فى مفاصلها واسترخاء فى جسدها ، فتستسلم للوجوم ، وتختلج عيناها ، ثم تتحرك شفتاها بصوت الولد الصغير . . هذا « سرور » تقمّصها . وقد يكون فرحا يطلب الحلوى ويداعب من حضر . . أو ساخطا فيعلن سبب سخطه . . على ان الحق الذى يجب أن يُعترف به أن « سرورا » أدرك أن تلك الحال لا صبحت لا تتفق مع وقار الجدة ، فهو لا يتقمصها الآن اطلاقا ، ولا يزورها إلا نادرا . . فى بيتها . . بل فى غرفتها . . بل

فى نومها .. انما .. إذا أمر بشىء وجب قضاؤه ، وإذا أتى بنبأ فهو الحق اليقين . . .

طرقٌ على الباب . .

فانتبهت الجدة من اغفائها ،وقامت تفتح وهى تعلم من الطارق . . فالحاج إمام وحده هو الذى لا يؤمن بالجرس الكهربائى ، ويرى عصاته للباب أقرب للتقوى . وعادت الجدة إلى مكانها، ولاذت القطة بحجرها هذه المرة . وخلع الحاج عند الباب حذاءً ضاعفته الرقع ، وثلّثت اضعافه القذارة وجلس تجاهه على البساط مسنداً ظهره إلى الكنبة وواضعاً عصاته تحت ركبته ، ثم قال وهو يلهث

— السلالم بتتعبنى قوى يا فاطمة هانم يا بنتى . .

وفاطمة هانم هو اسم الجدة . وقد اعتاد الحاج أن يمنح أبوّته لكل مخاطَب ليفوز منه بما تقتضيه الابوّة الفقيرة من عطف ومعونة .

قالت فاطمة هانم وهى تُعد القهوة . .

— اعمل معروف ياحاج .. شد حيلك معانا الايام دى

— الاعمار بيد الله يا ست هانم (وأخرج علبة النشوق فأصاب منها ، وأكب فى جلسته) كان سيدنا على كرم الله وجهه .. أطلعه الله على غيبه .. فعلم أن أبو لؤلؤة المجوسى سيقتله فى يوم كذا ..

فقالت فاطمة هانم :

— جبت البخور ؟

— أى نعم (وأخرج اللفافة من عبه) وكان أبو لؤلؤة المجوسى يمر على سيدنا على كل يوم ..

فقالت فاطمة هانم وهى تضع اللفافة تحت وسائد السرير :

— ما قلتش للشيخ مصطفى على الحلم ؟

— أى نعم .. قلت له على الحلم . وشرحته شرح وافى .

قالت الجدة ، قلت للشيخ مصطفى على الحلم ؟ . »

— وقال لك إيه ؟

— زى ما سبق قلت لك .. الشمعة عز . والنور فرج

— ما هى المسألة مش مسألة شمعه و بس يا حاج

وشرعت تقص عليه الحلم بتفاصيله مرة أخرى .. لقد رأت فى منامها أن عفريتها « سروراً » دخل عليها وأهاب بها أن تتبعه إلى الصالة .. فتبعته .. فاذا الصالة أفسح مما هى عليه بكثير ، واذا وسطها شمعة بطول القامة ، وكانت مضاءة ، وكانت تذوب بسرعة مدهشة حتى فرغت ، فتكوّن من مادتها السائلة هيئة جسد نائم ملفف بغلالات رقيقة ، ففزعت وأرادت أن تستفسر من « سرور » عن ذلك ، ولكنه تركها وجرى على السلم ، فاستغاثت بالحاج أن يلحق به . .

عند ذلك قال الحاج إبراهيم :

— أهو الشيخ مصطفى قال زى ما قلت لك . . الشمعة عز والنور فرج

ومع أن الحاج قال ذلك بلهجة التأكيد ، إلا أنه كان

يوجس خيفة من هذا الحلم منذ سمعه للمرة الأولى. وخطر له أن ربما هو المقصود بالشمعة التى تحترق . وأن منيته قد دنت . واكربه خاطر الموت فعمد الى تغيير مجرى الحديث فقال :

— فين نجيـة (وهى الخادمة) ما حدش سامع لها حس ؟

— كانت حوا قالت لى الصبح أبعت لها نوتات البيانو على بيت نظيم باشا الساعة أربعة . فبَعَتّهَا توديهم، وأهى لحد دلوقت ما جتش .

— مع إن بيت الباشا مش بعيد

— عاوز حاجة ؟

وأطرق الحاج ، وسكتا . . وفى هذه الفترة كانت الرغبة فى تغيير مجرى الحديث قدسوّلت للحاج أن يفضى إلى فاطمة هانم بشكوكه فى علاقة نجية بشفيق ابن الجزار : فقدحدث يوما أن خرج الحاج من غرفته ، فسمع عند

السلم همساً يقول « ابعد عنى !! » فتقدم يقعقع بحذائه ليستبين الأمر جهارا . وامتقع وجه الفتى . وتأهب الحاج ليثأر للفتاة الساذجة .. ولكن الفتاة السذاجة تظاهرت بأنها هى التى رمت اللحم عمدا ، فهو ردىء رداءة يدركها من له عينان !. لذلك كان للحاج كل العذر فى أن لا يرى تلك الرداءة ، وأراد أن يقنع الفتاة بخطئها ، ولكنها استشاطت غيظا وأتهمته بانه يحابى الجزار لأن الجزار يحابيه حين يشترى لنفسه .. وهددت بأن تعلن المؤامرة إلى سيدتيها . ولما كان الشطر الثانى من الاتهام حقيقة واقعة ، فقد خاف الحاج أن تنفِّذ الفتاة الساذجة وعيدها فتسىء السيدتان الظن به من ناحية ، وتَبطُل محاباة الجزار له من ناحية أخرى . فجعل يلاطف نجية حتى أذعنت لقبول البضاعة ، وسر الحاج بما أبلاه وما أبداه من كياسة ومهارة فى الاقناع .

هذا مادار فى خلَد الحاج وهو مطرق . ولكنه لم

يكن وقتئذ من راحة النفس بحيث يخوض فى حديث كهذا . وأعادت فاطمة هانم سؤالها :

— عاوز حاجة ؟

— لا . كتر خيرك . أهى كانت تسلينا بعبطها . .

وشربا القهوة ساكتين وكلاهما فى شغل بهذا الحلم ، وأخيراً قال الحاج :

— ماتخديش فى بالك

وكان انما يواسى نفسه . فحركت فاطمة هانم يديها حركة الرضى بما يجىء به القدر . عند ذلك استأذن الحاج فى الانصراف لأداء فريضة المغرب قبل الفوات .

وبعد قليل ارتفع صوته فى غرفته ينوى صلاة المغرب « ثلاث ركعات حاضراً . مستقبلا . الله أكبر . . »

الفصل الثالث

فى هـذا الجو نشأت حواء . وكان خليقا بها أن تكيِّف نفسها لهذا المحيط ، وأن يصبح عقلها كهفا للجِنة والشياطين وقاموسا بأسمائهم وأنسابهم وطقوسهم ، وخزانة لما يحتاج اليه هؤلاء « الاسياد » — ذكورا وإناثا — من طواق من خرز ، وقلائد من ودع ، وخواتم من فضة ، وتشكيلة كبرى من القلانس والمسوح والسراويل ، والخناجر والسيوف

وما كان عجيبا لو أنها نشأت قعيدة بيت يلفُّها احساس الأنوثة فى أرخص معانيها ، لاترى لحياتها رمزاً إلا جسدها تحبوه وتجلوه استعدادا لزيجة بهيمية موفقة

أوغير موفقة وما كان عجيبا لو أن الشباب والفراغ دفعا بها الى الشارع وأن الجهل والسذاجة استدرجاها من الشارع الى الهاوية

انما العَجب والاعجاب معا أن تنشأ حواء لا يتعدى البخور أنفها ولا تتخطى التمائم رضاءها الساخر . فهى تألف ماحولها ثم تأنف منه ، وتقف شخصيتها فى هذا المحيط صلبة باسقة . . وكان ليتمها وفقرها أول الأثر فى ذلك .. كانت وهى طفلة ترى أترابها يذكرون الوالد والوالدة ، ويزْأطن بما جاء به الوالد وما ستجىء به الوالدة وهى بينهن حائرة العين معقودة اللسان ، لن يجىء لها الوالد بشىء لأنه أهملها بما جَدّ له من بنات وبنين ، ولن تجىء لها الوالدة بشىء لأنها ماتت !! وأدّى بها ذلك الى أن تكون قليلة الكلام قليلة اللعب . . وكأنما أرادت أن تثأر من ظروفها القاسية ، وأن تتحدى أترابها فى زئيطهن ومباهاتهن ، فعمدت الى التفوق عليهن جميعا . ومضت

فيما أوحاه اليها وجدانها . . تذاكر وتثابر . . غير حافلة باشفاق جدتها عليها من مرض أو حسد . . فبان تفوقها ، وأصبحت بارزة فى أترابها مميزة

فلما رأت الجدة اصرار حفيدتها على خطتها ، اكتفت بأن تحوطها عن بُعد ، وأن تبادل الحاج امام نظرات السرور كلما جاءتهما حواء من أنبائها بما يسر ، ونظرات الانتصار كلما أعلنت لهما نصرا . وكان الشيخ والشيخة يعتقدان أن لبخورهما وتمائمهما فى هذا أو ذلك النصيب الأكبر ، ويصارحان حواء أحيانا بما يعتقدان ، فتبذل لهما الدعابة الحلوة ويمضى كل فيما يعتقد .

وحدث بعد تخرجها من المدرسة السنية — بتفوقها المعهود — أن اختيرت للسفر الى انجلترا للتخصص فى الرياضيات ففرحت ، ولكن « سروراً » غضب . وأقسم لن تبعد حواء عن عينه أبداً . وتآزر مع الحاج إمام والشيخ مصطفى فى البر بهذا القسم . فكُتبت الآيات على جلد

الغزال ودُستّت فى الوسائد ، ورُسمت الرسوم على الأطباق بالزعفران وغسلت بماء من المساجد ، وأريق الماء على الأعتاب والسلالم ، وكثير من أعمال أخرى أجهدت رأس الجدة وأنهكت بدن الحاج وأدرّت على مصطفى . .

وأخيرا . .

خفت موازين حواء ورجحت موازين فتاة أخرى كانت تنافسها . وقد يكون أن « سرورا » قفز من كفة حواء فخفّت ، وتعلق بكفة الاخرى فرجحت ، فهذا قول يؤيده ما رآه الحاج فى منامه رأى العين . على أن حواء أكبّت وقتئذ على مكتبها ، ومضت ترد على خطاب من صديقة لها اتصل بها ما حدث فأرسلت تواسيها :

« عزيزتى

« لقد كان لخطابك صدى عميق فى نفسى بعد تلك »
« المهزلة التى قُدِّرلى أن أفتتح بها حياتى العملية . والتى »
« أحسست فيها لأول مرة فى حياتى بمس لكرامتى . »

« وشعرت منها بخيبة أمل فظيعة .. نعم .. »

« وفى الحق أن ثورتى اصبحت الآن ليست ذاتية »

« ولكن على الفوضى .. الفوضى المنظمة المحبوكة »

« النسيج ، الموشاة الاطراف ، من النفاق والتواطؤ »

« الدنىء بين الطبائع البشرية التى أنا وانت غريبتان »

« عنها . . غريبتان عن تلك الاوساط التى حكمت علينا »

« الأقدار بملامستها وملابستها »

« وطبعاً هذه الغربة جعلتنى حائرة فوجدت »

« منفذا فى ثورتى التى بلغك أمرها والتى كنت أنكر »

« نفسى لو لم تحدث حيال هذا التواطؤ ، وأمام هذا »

« الهجوم السامط الناعم الهادىء الخبيث . . . »

« كسير الافعى »

« وهذا العداء لا يُرى ، ولكن يُشعر به خصوصاً »

« من كان مثلك ومثلى ، فهو يدل تماما وبوضوح على »

« البغضاء الكامنة بين الطبقات .. قولى لى .. لماذا اختاروا »

« سنية بدلى؟ وبماذا فضلوها على ؟؟ لا غرور فى ذلك حين »
« أكتب اليك انت .. ولكن يجب أن نفهم الموقف ، »
« لنفهم عقلية الأوساط التى سنعمل معها . . »

« انهم فضلوها ياعزيزتى ، لأنهم يظنون أنها من »
« طبقة أفضل من طبقتنا . . طبقة لها الحول والطول »
« والأمر النافذ، ويجب أن يشب أبناؤها بالحق أو بالباطل »
« ليكون لهم الحول والطول والأمر النافذ أيضا .. أما »
« نحن الفقراء المساكين ، فيجب أن نحتفظ بمستوانا ، »
« فاذا رفعنا رؤوسنا خفضوها ، وكلما تقدمنا بجهودنا »
« أخَّرونا . »

« عزيزتى

« قد نُذبح وتسلخ جلودنا فى مجزرة هذا العصر »
« المتقلب غير الثابت على مبدأ أو فكرة ، ولكن لن »
« نكون معصوبى الأعين كالبهائم .. بل نسمع ونرى ، »
« وفى هذا تسلية وعزاء . »

وألحقت حواء باحدى المدارس تعلم الرياضة فاقتصدت فى الاختلاط بزميلاتها المدرسات .. وتكوّنت لها حياتهن شخصية فيها تعال ، ولكن ليس فيها حماقة . . فكن يحترمنها ولا يكرهنها . . بل كانت الحكم إذا اختلفن جميعا ، ومرجع الرأى منهن أفرادا . فاذا ما عادت الى البيت ، أنست بجدتها ، وبادلت الحاج سذاجة بسذاجة. ولم تكن تنعى عليهما معتقداتهما فى الجنّة والشياطين . وترى أن لا لوم عليهما وأمثالهما فى ذلك . فهم تركوا للجهل فعلمهم الجهل علمه ، يَصدرون عنه ويرجعون اليه . فلماذا تحاول أن تزعزع هذا الايمان ، ولن تستطيع أن تحل محله منهما ايمانا آخر ، وما أشقى من يعيش مزعزع الايمان .

وتترك حواء جدتها الى البيانو ، وقد دفعت أول أقساطه من أول مرتب لها . وكانت للموسيقى عندها لذة كبرى ، تزكيها الرغبة ويكبتها الفقر ، فأقبلت عليها بلهفة الصادى وهمة المفتون . . وصارت هى السلوى .

على أن همة حواء ما لبثت أن ثارت على هذا الركود، وطموحها لم يرض عن تماثل الحياة بين البيت والمدرسة، فانضمت إلى احدى الجماعات النسائية، وراحت تعمل بنفس تريد العمل. ولا يزيدها الزمن الامضيّا. وكان لها الفضل الاوفى فى أن تنشىء الجماعة مشغلا لتعليم اليتامى، وباتت حواء شخصية جريئة حاسمة، لها مكانتها فى أرقى الأوساط النسائية.

وأقام المشغل مرة حفلة كبرى، دعا اليها الكثيرين والكثيرات من أهل العلم وأهل المال، ونيط بحواء أن تقول «كلمة الادارة» فقامت وسط الجمع الحاشد رابطة الجأش، طلقة اللسان. فتكلمت عن المشغل وجهوده التى مضت، والجهود التى يتحفز لها، والاغراض التى حققها، والاغراض التى سوف تُحقق.

وتطرق بها القول فأهابت بأن قد آن الأوان لتحديد الغرض من التعليم فى هذا البلد!! تحديد المهمة

الجديدة التى من أجلها تساق البنات والبنون إلى المدارس على اختلاف أنواعها . وتساءلت فى تهكم مرّ عما اذا كان أولياء الأمر والمفكرون والممولون قد اكتفوا وأثلجت صدورهم بأن تكد فلذات القلوب وتجد ، سنوات اثرها سنوات ، وينالون الشهادة بعد الاخرى . . لا لغرض اطلاقا سوى الالتحاق باحدى وظائف الحكومة ؟ حتى اذا ما قفل هذا الباب الأوحد فى وجه أحدهم ارتد عاطلا ، واصبح عالة على أهله ، وعبءً ثقيلا على نفسه وعلى المجتمع .

والبنات! يتعلمن علما نظريا محضا . . يؤدى بالقليل منهن إلى الحكومة أيضاً . . وترجع الغالبية العظمى منهن إلى بيوتهن ، فاذا بهن غريبات عن تلك البيوت . . غريبات حتى عن أداء أشد الحاجات مساسا بالحياة المنزلية .

والزمن! يتطلب للنشىء علما عملياً لا نظريا . . علما يكوّن الرجل الحق والمرأة الحقة . . الرجل الطامح

المكافح . . الجدير بالحياة . . القادر على استنباط طرق العيش . . والمرأة المدربة فعلا على تدبير المنزل . . يلوذ الرجل به فيجد الراحة إن كان متعبا ، والرأى إذا كان حائراً ، ورضى النفس إذا كان فى نفسه تبرم أو كلال .

وجعلت حواء تتوسع فى فكرتها هذه ، وتضرب الأمثال ، وتقيم الموازنة بين أنماط التعليم فى مصر وفى اوروبا بلباقة اسرت الاسماع ، واستثارت الاهتمام ، حتى دوى التصفيق فى النهاية دويا يُصم الآذان ، واحدثت عبارات الاستحسان لغطا طويلا بين الحاضرين واحتاط الكثيرون بحواء يهنئونها ويبدون لها السرور والاعجاب .

وعند الانصراف دعتها فريدة هانم خرم اللواء نظيم باشا لتركب معها سيارتها ، فأجابت الدعوة ، وسر الباشا وازداد وجهه المنتفخ المتوهج توهجا وانتفاخا . وهرول إلى السيارة بجسمانه الضخم ، وخطواته القصيرة ، وفتح

وعند الانصراف دعتها فريدة هانم الى ان تركب معها السيارة

الباب وانحنى على قدر ما سمح له كرشه . ثم جلس قبالة السيدتين ، وجعل يرد التحيات التى كانت تلقى على حواء بأبهة عسكرية كأنما هو المقصود بالذات .

وجعل اثناء الطريق يُرى حواء مصداق قولها فى اولئك الشباب الجالسين على المقاهى كالخشب المسندة لاحديث لهم إلا الكلام التافه أو النكات الفاحشة ولا سرور إلا أن ينتصر أحدهم على الآخر فى لعبة النرد . ويبدى أسفه لتلك القوة المعطلة فى زمن يتطلب فيه الوطن أكبر كَمٍّ من القوى .

ومن ثم توثقت عرى الصداقة بين حواء وفريدة هانم فاختارتها لابنتها الصغيرة تشرف على تعليمها ، وتعلمها البيانو .

ومضت أشهر . . .

الفصل الرابع

الوقت بعد الظهر، وقد انتهت عملية تناول الغذاء ونجية فى المطبخ، وهى على خرير ماء الحنفية. ورنين الاطباق والملاعق تُعوِل عويلا تقول فيه

أنا أحبـــــك أنا بس الحيا مطلوب

والساعة فى بعدك سنة والقلب منى يدوب

فلما اشتد بها الوجد، ورأت أن لا مندوحة من أن ترفع عقيرتها، أحدثت فى أدوات الطبخ حركات هوجاء، ليُخرج « النحـــاس » أصواتاً تتناسب مع « طبقـة » صوتها من الوجهة الموسيقية، وتقنع ربّات البيت بهمتها من الوجهة العملية . . بعد ذلك، وقفت فى

الصالة تدّعى بصوت جهير أنها ذاهبة تستعجل كيّ ثياب سيدتها الصغرى لأن المكوجى كسول دلت التجارب على أنه لاينجز عملا الا تحت ضغط الالحاح وكثرة التردد عليه . ولم تنتظر تنفذ لهذا الادعاء ، بل نزلت السلم جريا ونهبت الطريق نهبا ، حتى ليحسبها الرائى سوف تنقض على العامل الكسول فتلهبه نشاطا ، ولكن الطريق أدى بها الى شفيق ابن الجزار .

لم تعن حواء ولا الجدة بالرد على الخادمة . وكانت كل منهما فى غرفتها . . . هذه مستلقية على السرير وقد انتهى عملها اليومى من المدرسة ، وتلك على الكنبة تعمل الابرة فى ثياب أمامها ورن صوت الخادمة فى آذانهما دون أن يحدث معنى خاصا فقد كانتا ساهمتين لاهذه نائمة ولا تلك تخيط .

قال وجدان الجدة « لست ادرى يا ابنتى ماذا تعانين ؟ . . وعبثا تخفين عنى غمتك بابتساماتك وكلماتك

فهى ابتسامات خالية من ذلك البريق الذى ينعكس على عينَى . . . وكلمات ليست فيها الحرارة التى اتخذ منها النشاط لشيخوختى . . . أتكونين مريضة ؟ » .

فأجابها وجدان حواء « كلا ! . لست مريضة . . . بل نعم ، قد أكون . . لست أدرى . . إنى حائرة . . وأشعر بأننى لست ملك نفسى . . لا أعلم لماذا يفرح قلبى ، ولماذا يحزن ، ومم يفْرَق تفكيرى . وبم يطمئن ؟ . . »

ولم يستطع وجدان الجدة تفهم هذه الشكاية المبهمة فعمدت إلى الابرة والثياب وعالجت حواء النوم ، ومكّنت رأسها من الوسادة ، وكان يلذ لها أن تنام وقت الظهيرة كلما سنحت الفرصة ، وهى اليوم أشد ما تكون حاجة إلى الراحة . فقد لزمها الليالى الماضية نوم غير مريح تشرف فيه على مروج لا عهد لها بها فتبهرها وما تكاد تطمئن اليها حتى تهب العواصف ، وتنقلب المروج أغواراً وانجاداً وعرة مربدّة الجو تتجاوب فيه همهمة بالغة الرهبة

وهى تسير فى طرق تتعرج أمامهـا كالأفاعى ، وتقلق تحت خطواتها حتى لينخلع قلبها ، فتستيقظ ملؤها الفزع وينتابها أرق لا تستطيع فيه التفكير بجلاء .

وها هى الآن لم تنم . والهواجس تصدّع رأسها . . فقالت وقد بلغ الملال أشـده « أعصابى متعبـة . أنا انهكت أعصابى بالعمل، وهاهى النتيجة . يجب أن أضع حداً لذلك . . يجب أن أضع حداً لذلك . . أفلا أقل من أن أنعم بالنوم ؟ ! أى كارثة تكون لو استبد بى الأرق ، وتمادت بى الاحلام المزعجة ؟ . . لن أذهب الى بيت الباشا . . » وكأن قوة خفية تحـدّتها فى عزمها هذا فأعادته فى ضجر واصرار . « نعم لن أذهب ! ! » وانساب تفكيرها فجأة فى شأن مالا تزال مدينة به من ثمن المنزل . وكرهت ذلك فطردت الخاطر عنها .

ثم سهمت طويلا ، فلما فطنت لنفسها تراءى لها أن فى عقلها تياراً عميقاً مبهماً وأرادت أن تغوص اليـه ،

فمنعها كلالها عنه بيد أنها أيقنت أن هذا التيار أراح قلبها فى فترة سهومها . ثم باغتها حوار موهوم بينهـا و بين أعضاء المشغل فى مقترحات لها وعبثا حاولت أن توقف ذلك الحوار فراح يتردد فى رأسهـا رغم ارادتها حتى كان منه ومن طول التصاق مؤخر رأسها بالوسادة أن أصابها دوار شديد . فاعتدلت بحركة عنيفة فنامت على جنبها وهى تقول . . « الجمعية . . . والمشغل . . . وذلك الهراء المضنى الذى فيه أفنى وقتى . بل شبابى . أجل شبابى . لماذا لا أكون كباقى زميلاتى فرحة طروبة آخذ الحياة على علاتها ؟ . المثل الأعلى ! . . العمل من أجل العمـــل ! . . العمل المجموع ! . . سخف . . نعم . لن أذهب الى بيت الباشا . . » واشتد بها الدوار ، وتخاذل جسدها ، وضاعف ضيقها الحر والعرق

قال وجدان الجدة بعد حين « هل نمتِ يا ابنتى ؟ »

قال وجدان حواء « أدع لى ياجدتى ! »

قرفعت العجوز عينين متوسلتين الى السماء ثم عمدت الى الابرة والثياب .

واستيقظت حواء بعد حين على صوت الخادمة وهى تصيح بأن الرجل الكسول لم ينته بعد من كى فستان سيدتها . فنادتها حواء وأمرتها بأن تعد الحمام فأسرعت الى تلبية الطلب بهمة دلت عليها قعقعة قبقابها ذهابا وجيئة . وأفاد الماء البارد حواء وأشعرها النشاط .

وكانت نجية قد أصلحت من غرفة سيدتها وفتحت النافذة فامتدت الشمس على البساط ، وانعكس ضوءها على المرايا فأفاض على الغرفة البهاء . وحواء قد عنيت منذ توظفها بان تكون غرفتها أنيقة مستكملة الاثاث . ووقفت حواء وسط شعاع الشمس وتمطت . لا عن كسل بل لتفسح لقلبها وكان يتمدد فى صدرها بشعور أشبه بالفرح الشديد وهو شعور جعل يحتلها من حين الى حين فى الأيام الأخيرة ولم تكن تعرف عن يقين مصدره وكانما تقصته ترامى وغمض

عليها . وفى هذه اللحظة دخلت نجية فقالت :

— ستى الكبيره بتقول لحضرتك تشرب القهوة هنا والا عندها ؟

وترددت حواء ، وقالت وهى تستلقى على الشيزلنج

— هنا . . هاتيها هنا . . . أحسن

وكانت « أحسن » هذه لنفسها أكثر منها للخادمة اذ كانت حواء تفضل الوحدة والانفراد وان لم يكن لديها سبب خاص . وفى آخر رشفة من القهوة قالت لنفسها فجأة .. « ورمزى ؟ ! . انه شديد الحياء ! وهل يكون خجولا فى عمله وفى حياته العامة على نحو مايبدو أمامى ؟ لخير له أن يكون أكثر حيـــاة وجرأة وصراحة ! ! »

ووضعت الفنجال على عتبة النافذة ثم قالت « ومع ذلك فما شأنى به . ليكن كيفما شاء » وبعد فترة قامت بنشاط على عزم أن تستعد للخروج . وما استقر بها مقعد الزينة حتى فتر نشاطها وقالت « الأجدر أن لا أذهب الى بيت

الباشا وأن أستريح » وكانت فى ذهنها فكرة أخرى تسير مع نجواها هـذه تماماً ، وهى أن تُعد محاضرة عنوانها « نطلب السفور لشباننا »

وفى هذه اللحظة لمحت صورتها فى المرآة ، فامعنت فيها النظر . فتعطل تفكيرها اطلاقا ، ثم انتهت فاذا بها تنظر إلى المرآة وجلة ضارعة . ذلك لأنها ذكرت — على حين فجأة — أنها فى الثانية والثلاثين من عمرها . وخيل اليها أنها لم تنظر إلى المرآة من قبل ، بل كانت ترجِّل شعرها أو تصلح من وجهها بكيفية آلية أو غريزية وهى تفكر فى أشياء أخرى . . الجمعية . . المشغل . . المدرسة . . الموسيقى . . وما إلى ذلك .

ولـكنها الآن ترى . . .

ترى أن عينيهـا قد غلبهما جد الرجولة على فتور الأنوثة . ووجهها وان كان ممتلئا إلا أنه كامد البشرة . شاحب وقوس شفتيها منحن إلى الأسفل أكثر مما يجب .

عبوس يزيد منظرها عمراً . وشعرها لا بريق له ولا هو مرتب على نمط خاص . وسهمت حواء إلى المرآة طويلا فأحست بالخجل ، والحسرة . . . والجرأة !! ثم ترددت ، ثم فتحت أدراج التواليت بحركات عصبية ، وشرعت تعنى بنفسها للمرة الأولى . .

وكانت أثناء ذلك تحاول أن تقتنع بأنها انما تفعل ذلك من أجل نفسها ، كأية شابة فى سنها ، بل سوف لا تهمل زينتها بعد اليوم . وسوف تعتذر لفريدة هانم عن متابعة تعليم ابنتها . وسوف تشارك زميلاتها ضحكهن ومرحهن تثقب الشرنقة وتطير إلى الحياة . فالوقت لم يفت ، وهى ما زالت فى عنفوان الشباب .

وسرها ما بدى على وجهها من نضارة ، ولو لم تبالغ فى تزيينه . ولكن الساعة دقت فى الصالة النصف بعد الرابعة ، فأصابت تلك الدقة مجمع الأعصاب من حواء وأحست بيد تمسك قلبها حتى صعب التنفس عليها فراحت

تعض شفتيها تباعا . ثم هزت كتفيها وقالت « قلت لن أذهب بمعنى لن أذهب ، » ! واعتزمت أن تزور صديقة لها فى شبرا . وعند ما وقفت أمام المرآة من خزانة الملابس ، أعجبها قوامها المديد وقد أظهره الثوب الذى انتقته فى أحسن مايكون .

وهمت بأن تبدى زينتها على جدتها ، فأدركها خجل وامتعاض ، فعدلت عن ذلك إلى تنفيذ ماعزمت عليه .. وأوصلها الترام إلى « العتبة الخضراء » فنزلت ، وأيقنت عند سماع صخب الباعة أنها كانت ذاهلة طول الطريق ... وهنا شاعت فى فؤادها غمة طاغية . ولبثت مكانها برهة خيل إليها أنها من الطول بحيث لفتت الانظار اليها . فارتبكت ، واسرعت الى الترام فعادت أدراجها . . . إلى بيت الباشا .

الفصل الخامس

ومضت أسابيع تختلف حواء أثناءها مراراً عن الجمعية وعن المشغل طلبا للراحة — ولكنها لم تتخلف عن « الدرس » مرة واحدة . وكانت تغرى نفسها بأن هذا الدرس يدر عليها مالا اضافيا تحتاجه فى الضائقة النسبية التى أحدثتها الصفقة الأخيرة من شراء المنزل . وكان هذا المنطق يغضبها « لأجل المال وحده أذهب ؟ . وهل سوف أفنى العمر فى جمع المال وتسديد الأقساط ؟ انها لحقارة . . . وعيشة تافهة ! ! » وتثور كرامتها « إذاً لماذا اذهب وأنا أشد ما شعرت به فى حياتى تعبا واهتياج أعصاب ؟ ! » وما من جواب صريح . بل أنها كانت تخشى أن تصارح نفسها . . . وتذهب إلى بيت الباشا

وبيت الباشا لا يبعد كثيرا عن بيت حواء — جغرافياً — أما فيما عدا ذلك فالسماء والأرض والشرق

والغرب . . حديقة واسعة منسقة أجمل تنسيق . وممر من زلط ذى ألوان تتكون منه رسوم غاية فى الابداع . ثم سلم وشرفة ، كلاهما رحب وكلاهما من رخام . وفى الشرفة بابان من حديد أسود وزجاج اخضر لغرفتى استقبال تتنافسان ابهة وبذخا . وقد استعانت احداهما فى هذه المنافسة بمعزف فخم صفت عليه التحف والتماثيل .

هنا تجىء حواء ، والى هذا البيانو تجلس تراجع للصغيرة دروسها ثم تعلمها العزف . . و . . هنا تقابل رمزى ، قبل الدرس أو بعده ، فتتحدث اليه ، وتجيبه الى ما يطلب عزفه .

ورمزى ، ابن الباشا ، فتى تخرج من مدرسة الزراعة العليا منذ عامين ، ويشغل مركزاً فنيا فى الوزارة . وهو الآن فى الثالثة والعشرين من عمره . رشيق وفى تقاسيم وجهه أنوثة تظهره أصغر منه سنا حتى ليحسبه الرأى طالبا لم يساهم فى الحياة بعد . وهو من جاه والديه

وثروتهما غنى عن أى طموح . . طريق الحياة منبسط أمامه ممهد ، مشرق مديد ومع ذلك فما هو نزق بشبابه ولا صلف بما أوتى . بل رزين دمث وفى نظرته خجل وقد نشأ وله صوت والده الغليظ الواضح يجذب به اليه المستمع . وان لم يتحدث بجديد .

ولم يتعمد رمزى أن يثقف نفسه ثقافة خاصة وإن كان يشترى الكتب غثها وسمينها على السواء ، إذا تساوت فى أناقة الشكل وجمال الطبع . فمكتبته اذاً عامرة باهرة وإنه ليمضى الساعات فى ترتيبها وإعادة ترتيبها . ويداخله من عرفان أسماء المؤلفين شعور بأنه يتمشى مع الحركة الأدبية . بيد أنه يقرأ أهم الصحف اليومية ، وكافة المجلات الأسبوعية ، والأخيرة عنده مجموعات ينفق على تجليدها بسخاء .

من ثم لم يخل من سفسطة الطبقة التى هو منها ، فهو يجلس فى غرفة الاستقبال الفخمة من منزله الفخم ،

ويتكلم برخاء عن فقر الفلاحين ، ويظهر علمه بجهلهم ، وحسن نيته حيال سوء حالهم . . ويأسف لذكر وأنثى من بنى آدم ، وذكر وأنثى من البهائم يعملان النهار فى حقل واحد ، ويبيتان الليل تحت سقف واحد ، ثم يعتذر بوالده عن أى اصلاح فى ضيعتهم . . فاذا بحواء مشفقة عليه لا على الفلاحين .

وقد عود رمزى أهلوه منذ صغره أن يقنع بالدار والحديقة . وبالسينما أو المسرح أحياناً . فهو ماض على هذه السنّة . ومنذ جاءت حواء تعلم أخته الصغرى وجد تسلية فى أن يتحدث اليها دقائق قبل الدرس أو بعده .

وكانت حواء — بادىء الأمر — تشفق على هذا الشاب من تفاهة تفكيره . ولا ترتاح إلى مغالاته فى العناية بمظهره . وكانت تسائل نفسها « أى عمل جدى يمكن أن تضطلع به هذه الدمية ؟ » وتعجب من أخلاده إلى البيت ، ومن تماديه فى الركود ، بينما هى مثقلة

بالواجبات لا تكاد ساعات النهار تكفى جهودها . على أنها لم تلبث أن ألِفت شخصية رمزى على علاتها ، وأخذت تلتمس له المعاذير عن صبيانيته بعدم خبرته ، وعن مظهره بصغر سنه وما تبيحه له ثروته « إن الرأى ثمرة التجربة ، وهو لم يعرك الحياة بعد . أو لم يكن طالباً منذ عامين ؟ والعمل وليد الحاجة . وهو فى غير حاجة . فلم العمل ، أنما نحن وأمثالنا المرغمون على الكد والكفاح لنكسب مادياً أو أدبياً . تلك هى الحقيقة . . »

واعتادت حواء الجلوس إلى رمزى والتحدث اليه . ثم تطورت العادة الى رغبة ، والرغبة الى احساس بنعيم وحواء تحاول أن لا تعترف لنفسها بهذا النعيم . . ومن ثم كانت حيرتها بادىء الأمر . . لا تعرف لماذا يفرح فؤادها ولم يحزن . ومم يفرق تفكيرها ، وبم يطمئن ، الى أن صرّحت الحرب بين عقلها — وقد حشد الدين والأيمان والعرف والخرافات — وبين قلبها وليس له الا الشباب

المستميت . وكانت الحرب سجالا ، فهى حيالها فزعة أبدا . . .

الى أن جاء يوم . . .

وذهبت حواء إلى بيت الباشا .فلم يستقبلها رمزى .. وابتدأت الدرس وانتهت منه . . ولم يجىء . . وكان عليها أن تنصرف . . ولـكن كيف ؟ وهل يمكن أن تنصرف دون أن تراه ! . هنا نزلت عندها بالدين والايمان والعرف والخرافات شر هزيمة أمام طغيان العاطفة . واستحالت حواء فى مكانها تمثالا صلداً ، واستحالت نفسها هوة لا قرار لها . ولبثت هكذا حينا . ثم ترددت فى الهوة أصداء عذبة ، فانتعش التمثال فجأة كأن معجزة أودعت فيه الحياة .

— مش دا أخوك ؟

قالتها بلهفة ، وكان رمزى فى الخارج ينادى بعض الخدم .

فقالت زيزى بسذاجة الطفولة :

— أيوه . . هو مع بابا علشان العزبة .

ولو أن زيزى كانت أكبر سنا أو أدق ملاحظة لدق المركز وتبينت حواء موقفها فاتزنت جهدها وعدلت عن أسئلة شتى تقافزت الى ذهنها . وبعد فترة قالت الصغيرة وعيناها تلمعان .

— ياريت حضرتك تجى معانا العزبة السنه دى

قالت حواء وقد جلست على مقعد عند نافذة تطل على الحديقة ، رجاء أن يعرض رمزى فيراها . ولفت الصغيرة بذراعها

— هى عزبتكم جميلة ؟

— جدا . . جدا . . فيها غيطان . . و . . ساقية و . و فلاحين . .

— وأخوك بيكون معاكم ؟

— أيوه .. وبيركب الحصان .. وياخدنى قدامه كمان

— انت تحبي أخوك كتير ؟

— خالص خالص . . قد . . .

وارتج على الصغيرة ، فضمتها حواء وقبلتها . وسرت زيزى فابتسم وجهها وقالت وهى تحملق بعينين مشرقتين فى عينى معلمتها :

— وحضرتك مش بتحبيه كمان ؟

فانتفضت حواء لهذا السؤال ، وضغط ذراعها — بحركة عصبية — على خصر الصغيرة . والتفتت خلفها خيفة أن يكون أحد سمع حوارهما ، أو سمع هذا السؤال على الأقل . . وهمت بأن تقوم . ولكن نبْض قلبها وتخاذُل ركبتيها حالا دون ذلك . . فقالت بعد برهة وهى تمر يدها على شعر الصغيرة وتبتسم

— روحى بقى استريحى علشان تذاكرى درسك الجديد . .

وانصرفت حواء . . .

وكانت فى طريقها لا تحس الأرض التى تحت قدميها ، لأن فكرة هالتها فعطلت مشاعرها « ماذا حدى بزيرى أن تسأل هذا السؤال ؟ أتراه جاء عفواً ، أم موعز اليها به ؟ أتكون والدتها وقد لحظت تكرار لقائها لرمزى . . أم يكون رمزى نفسه ؟ . وإذا كان ذلك ، فهل بدا منها مارأب أحدهما فأجرى هذا السؤآل على لسان الصغيرة لاستقصاء الأمر ، أو للتعنيف ، أو على الأقل لأيقافها عند حدها بطريقة غير مباشرة ؟ أم أن رمزى . . »

ولم تستطع حواء — أو أنها لم تشأ — أن تحدد بالضبط ذلك الهاجس الأخير . وأصابها دوار شديد . وودت لو أن تسعفها عربة تقلُّها إلى منزلها وفيما هى كذلك إذ بصوت يقول :

— بونوسوار . .

فثابت إلى حسها ، تكاد عيناها . تجحظان . .

تلتهبان . . تعشيان . . حين وقعتا على وجه رمزى . وصارت كل جارحة منها تنبض بالطرب . وروحها تضرب جدران قلبها بأجنحة قوية تود الانطلاق لتتقمص هذه الفرحة . . فرحتها الأولى فى اثنتين وثلاثين سنة قضتها بلا فرحة . . ولم تدر بماذا أجابت وهل صافحته ؟ وهل شد على يدها أو شدت على يده ؟ وكيف كان مسها ، وكيف كانت حرارتها ؟

ولم تحر جوابا .

وودت لو أن تعبر له عن سرورها المطلق بهذه المصادفة ، حتى ولو بالعبارات التى تجرى بها العادة فى مثل هذا الظرف ، ولكنها أمسكت حذار أن تكون فيها تلميح لا يسره . ثم أنّت جوانحها بالرغبة فى أن يكون هذا التعبير من ناحيته . . على أنها اكتفت بأن قالت ، وهى تنظر اليه بطرف عينها لتخفى عنه وجهها بقدر الامكان :

— كنت فين النهار دا ؟

وفى هذه اللحظة تبينت على وجه الفتى ظَل كآبة ، فالتفتت إليه وقالت .

— مالك ؟ !

وسارا جنباً إلى جنب ، وكانت أطول منه بقليل ، وأنشأ رمزى ينهى اليها ما كان من أمر والده مع نفر من المزارعين جاءوه يشكون الأزمة وقلة المحاصيل وهبوط الأسعار ، ويلتمسون منه تخفيض إيجار الأرض إلى حد يتناسب وهذه الحال الجائرة التى لا تكاد تُدِرُّ عليهم القوت . . والباشا لا يلين . . فلما أراد الفتى أن يتوسط فى الأمر ، انتهره ، ورمى الفلاحين بأنهم أخبث من الذئاب ، وأمكر من الثعالب ، وأن الفقر وسوء الحال وأزمة أشد من هذه الأزمة ، لهى أنجع علاج لترويض نفوسهم الشريرة . . وأنه يجب أن لا يرثى لحالهم فذلك محض صبيانية . . وأن يكون من الأعيبهم على حذر .

فآثر الفتى أن ينصرف .

وكانت حواء تشترك فى الحديث بأقصر العبارات وعقلها فى تفكير آخر . . ماذا عساها تصنع حين يضلان البيت . . وسيصلانه بعد دقائق ؟ أتترك الفرصة الذهبية تفلت بهذه السرعة ؟ كلا . . كلا . . سوف تدعوه إلى دارها ، وتلح إذا أقتضى الحال .

— . . . . وتصورى أن فيه قرى ، لو جمعت كل ما عند أهلها تجديه لا يتجاوز جنيه واحد

— هذا بؤس .

ومرت فى خاطرها مقارنة بين البيتين ، وبين الأهلين ولأول مرة فى حياتها تبينت أن جدتها يجب أن تكون أحسن مما هى عليه مظهراً . . والحاج أمام . . أواه لو دخلا وكان بقميصه وسروالة يتوضأ فى صحن الدار

— تجديش فى الدنيا أعجب من كون الغلابة دول ما يناموش فى أوده مبنية بالطوب أو الدبش إلا إذا ماتوا

— ملاحظة مدهشة

وكادت تعدل عما اعتزمت ، ولـكن قلبها تشبث بالفرصة السانحة . . سوف تجلس إليه على انفراد . . يتحدثان بكامل الحرية . . أترى غرفة الاستقبال نظيفة مرتبة . . أنها لم تدخلها منذ أيام . ونجية لا يُعتمد عليها . . على كل حال سوف يجلسان فيها . وتعزف له على البيانو

— . . . وكل ما طلبته أن ينقص لهم الأيجار عشرين فى المية .

— نسبة معقولة .

بهذا تستطيع أن تقترب من قلبه فتسبره . أى فرحة جنونية سوف تعتريها إذا ما وجدت لها فيه مكانا ! وخطر لها كذلك أن هذا اللقاء ليس وليد المصادفة . بل تدبير من الفتى تعمده . وأنه كان يرقب خروجها . وربما كان يتمنى هـذا الظرف من زمن طويل . . وأنه ينتظر منها ابداء سبب لأطالة الوقت فيجيبه

على الفور . بل ربما اقترح من ناحيته سببا . . على أى حال ، إذا جَدَّ فى الامر خيار فسوف تفضّل الذهاب إلى المنزل فقويت ثقتها فى العثور على ضالتها . وأدركها لذلك الخاطر مثل مس الكهرباء ، ثم مثل نشوة الخمر حتى لقد بذلت جهداً فى أن تقول

— بديع من غير شك ، ولكن الباشا أدرَى ووصلا المنزل . وقبل رمزى دعوتها

الفصل السادس

كان أول ما أراح بال حواء ، أن رأت غرفة الحاج مقفلة فأسرعت تنهب السلم الى جدتها ، فاذا إمام عندها يقرأ عليها من كتاب « قصص الأنبياء » وقد وصل من معجزات موسى عليه السلام ، أنه وهو فى السابعة من عمره كان يوما جالسا مع فرعون على سرير الملك ، وأن فرعون نهره لسبب ما فنزل مغضبا وضرب برجله قوائم السرير فحطم منها اثنتين ، وسقط فرعون وتهشم أنفه... وكانت نجية تسمع ، فسرها ما تخيلته من منظر الملك العظيم مكوماً على الأرض والدم يسيل من أنفه ومضت تضحك وتصخب . . وداهمت حواء الموقف عند هذا

الحد ، فأشارت الى الجميع بالصمت وأعلنت مقدم ضيفها فى كلمتين ، وتركتهم بأفواه فاغرة وعيون محملقة وانطلقت كالسهم الى غرفة الاستقبال فاطمأنت على حالها ، وفتحت بابها المؤدى الى السلم . ودخل رمزى فوقف وسط الحجرة يجيل فيها النظر ، وعلى شفتيه ابتسامة خشيت حواء أن تكون اشفاقاً .

وغرفة الاستقبال بسيطة الأثاث ، لا أكثر من كنبة وثلاثة مقاعد رحبة ذات متكآت ولها وسائد ضخمة مريحة بينها سجادة صغيرة ، وفى الوسط صينية من نحاس أصفر على حامل دقيق الصنعة . . ثم البيانو . وعليه صور فوتوغرافية لبعض الصديقات . وعلى الجدران صور أخرى لحواء مع تلميذاتها . وفوق الكنبة صورة زيتية لمسجد وعلى بابه شيخ جالس يقرأ القرآن .

فأقبل رمزى على هذه الصورة ، وثبت فيها نظرة الفاحص ثم امتدح مافيها من تناسق وصدق فى الألوان ،

وبراعة فى الضوء والظل. براعة جاءت حقا بجلال المسجد وروعته ، ولم يشأ إلا أن يكون الناقد الحريص فأظهر مواطن ركاكة فى جلسة القارىء ومقدار حيويته . وكان التكلم برزانة استمدها من أنه أغرم بالتصوير وعالجه أيام الدراسة ولكنه اضطر الى تركه تحت ضغط واجباته وتذمر والده .

— لما تخرجت من المدرسة الناظرة أهدتها لى

ووجدت حواء صعوبة فى اداء ما قالت لشدة خفقان قلبها · وقال رمزى ببساطة :

— لا غرو

وتحول الى الصور الفوتوغرافية ، فأطرى حواء وتلميذاتها . . بكلمات وايماآت من رأسه وابتسامات .

وهدأت أعصاب حواء نوعا ما ، وتمالكت جأشها الى حد . وبدأت تشرح لضيفها المناسبات التى أخذت فيها تلك الصور . فأحداها فى حدائق القناطر الخيرية ،

وجعل رمزى يجيل فى الصورة نظرة الفاحص

وأخرى فى سفح اهرام سقاره ، وثالثة على سلم المتحف المصرى ، ورابعة . . . .

وفجأة تحشرجت الكلمات فى حلقها وامتقع لونها، وأظلم الجو فى عينيها . . ذلك لأن صوت الخادمة رنّ وقتئذ بالاستفسار عما اذا كانت تشترى الغازوزة بالقرش الصاغ كله أو بنصفه فقط ! ! وكان رمزى مجيدا فى هذه اللحظة ، فقد أدرك موقف مضيفته فانطلق يتكلم عن الرحلات وأثرها المباشر فى ثقافة النشىء ثم جلس فى احد المقاعد وجلست قبالته ، وهى تحمد جلوسه لما كانت تشعر به من تخلخل ركبتيها ، وعمدت الى أن تستأنف معه الحديث عن الفلاحين فتكلم الفتى ولكن الموضوع نضب فطلب منها بدوره أن تعزف على البيانو ، فقامت بخفة وابتسام تعماتهما ، وحاولت أن تعزف قطعة صنعتها مقدمة لنشيد سوف تنشده بنات المشغل فى حفلة قادمة،

ولم تكن عزفتها لأحد من قبل. وان كانت تعتز بها وتراها خير ما صنعت. وسرها أن يكون رمزى أول سامع. وحاولت الاجادة فخذلها اهتياج اعصابها، فجاء التوقيع اشبه بالعبث حتى اضطرت إلى الاعتذار بأنها لم تنته بعد من ضبطه.

ودخلت نجية بثديها البارزين، وجسمها الرجراج وشعرها المنفوش، تقدم الغازوزة، فلم يستطع رمزى الا أن ابتسم ابتسامة واضحة، وأسرّ إلى حواء استعداده لأن يقدم هذه المخلوقة إلى أول معرض تقيمه وزارة الزراعة فوافقته حواء على أن تلك الخادمة بقرة آدمية حقاً.. وضحكت لتسره ولتخفى خجلها. وبعد أن انصرفت الخادمة خشيت حواء أن يفتر الحديث فاندفعت تقول:

— البنت دى فكرتنى بالتور اللى شايل الأرض

فنظر اليها رمزى باسما مستفسراً فاتخذت سيما الفرح والسذاجة وانهت اليه أن الحاج امام ألقى عليها

محاضرة بديعة فى هذا الشأن خلاصتها أن الأرض فى بدء تكوينها كانت معلقة فى الفضاء ، فتعبت، وشكت إلى الله . فأرسل لها الله ملاكا دخل من تحت الطبقة السابعة وقبض على طرفيها . وبذلك حملها ولكن لم يجد لرجليه قرارا . . فأنزل الله له ثوراً من الجنة له أربعون ألف قرن . . وأربعون ألف رجل . . ومن القرن الى القرن خمسماية عام . وهذا الثور بدوره لم يجد لرجليه قرارا فجعل الله تحته ياقوتة طولها خمسماية عام ، ولم تكف الياقوتة فأنزل تحتها صخرة فيها تسعة ألاف ثقب من كل ثقب يتدفق بحر هائل . ولم تجد الصخرة ما ترتكز عليه فأهبط الله حوتا من البحر السابع الذى تحت العرش فأستقر الجميع عليه . .

فقال رمزى :

— أنا أعرف أن التور اللى شايل الدنيا . . زى أى ثور تانى له قرنين اثنين . . وانه . .

— وانه إذا حرك الأرض من قرن إلى قرن . . .

— يحدث الزلزال

— يحدث الزلزال . تمام . ولكن دى رواية الحاج إمام

— اوعى تلقى هذه المحاضرة القيمة على تلميذاتك أو فى المشغل

ولم يخف على حواء ما فى هذه العبارة من استخفاف . بل كانت قد لحظت ذلك من مط شفتيه اثناء كلامها ، فعزمت على ان ترفع مستوى هذه الخرافة بأن تجعلها مقدمة للكلام عن العامة وفلسفتهم ، وطبهم وآرائهم فى الوجود . . ولكنها عدلت فجأة وقالت دون ان تخفف من ظاهر مرحها ، وإن كانت احست بخيبة غير يسيرة . .

— لا . لا . مشغلنا يسير على أحدث نظم التعليم

— فى الحقيقة . . دا مجهود هائل . . ولا ينقصه . . الا . .

— احنا على استعداد لأن نسد كل نقص . .

— عاوز أقول . . يجب على الأغنياء . .

— آ . آ .

ولم تزد حواء مخافة أن يكون الانتقاد من ناحيتها فيه احراج له . أو مساس بكرامته ، ولم يزد رمزى كذلك وقد شعر بأنه تورط فى هذه الملاحظة ، واتقى كل منهما النظر إلى الآخر . . وعمدت حواء إلى تغيير الموضوع . فارتج على ذهنها ، وساد صمت ثقيل .

ولام رمزى نفسه على أنه قبل تلك الدعوة ، وكان قد أحس منذ حضوره بعدم الارتياح ، و بأنه فى جو لا يستطيع التنفس فيه بحرية . وأيقن أنه تسرع فيما فعل ، وأن مضيفته إنما تهش له مجاملة لتطفله . . ثم ماذا لو اتصل بوالديه نبأ هذه الزيارة ، قد يسيئون الظن به وبها . . وينشأ مركز غير حميد ، وود لو أن يلفت نظرها إلى وجوب الكتمان . ولكن هذا مستحيل . . اى صغار

منه وهوان لها .. بيد أنها لاشك تدرك دقة موقفها حيال مجيئه إلى دارها .. وهذا يكفى .

ولم يفت رمزى خروج حواء - أو محاولتها الخروج عن شخصيتها الوقورة إلى المرح وشىء من الصبيانية . فلم يرتح إلى ذلك منها . وإنها فى اعتقاده لم تخلق إلا للجد والقول الرصين . واشفق عليها وهى تتكلم عن الثور والياقوتة والصخرة والحوت .. ولكن هو الذى ألجأها الى ذلك باقتحام دارها على غرة منها .. فهى ترهق نفسها لتسره بما يحضرها دون تفكير ، بل لعل تفكيرها أبعد ما يكون عن لسانها الان .. مشغولا بما يقوله أهلها ، و يتقوله آخرون عن زيارته

وتغلب أحدهما على الصمت المخيم بملاحظة تافهة . اعقبها حديث ممزق مضطرب .. يبتدرها بسؤال فتجيبه بسؤال آخر ، ثم موضوع جديد ، فاذا به كلمات معدودة . وصمت .. وهكذا .. حتى أدركا معاً أن الخير فى ان

ينتهى الموقف بالانصراف .

فهبطت معه السلم . . وشيعته بنظرها إلى ان خرج وكانت تظن انها تبتسم .

ولكن الدموع كانت تنهمر على خديها . . .

الفصل السابع

وكانت هذه الدموع آخر قطرات كبريائها . ولم تدر كم لبثت تسكبها. ثم قضت ليلة فى سقر لم تخف مظاهرها على الجدة ، فقد ادركت — وهى فى غرفتها — كثرة حراك حواء فى فراشها ، وأنينا وهمهمة يصدران عنها ، فحسبتها لم تنم ، فجاءتها علها تسليها وتطرد عنها الارق . ولما لم تشعر حواء بوجودها اكتفت بأن وقفت الى جانب السرير ، وكان القمر فى عنفوانه ، وضوءه على وجه حواء وبعض جسدها ، فتبينت الجدة ما فى تنفس الحفيدة من اضطراب . وما على وجهها من ضجر وتقلص من حين الى حين ، فتمتمت « بآيات الكرسى » وهى تُمِر يدها

فى لطف على الجسد الممدد ، حتى خيل اليها أن قد جاءت الآيات بالسكينة فعادت ادراجها تمشى على حذر . وفى الصباح أنهت الى حواء ما كان ، فاعتذرت بأن قد يكون السبب سوء الهضم أو ما اليه ، وطمأنت الجدة فاطمأنت .

وساورت حواء طول اليوم مناظر الخيبة من زيارة الامس ، وظلت تحمل على صدرها عبءً ما تكاد تطيقه. وادركها من الذهاب الى بيت الباشا خوف وخجل . . خوف من أن يكون رمزى أطلع والدته على ماحدث ، وسوف تلومها الوالدة تصريحا أو تلميحا ، وقد يحدث ما هو أسوأ . . . وخجل من رمزى — على فرض أنه اعتصم بالكتمان . وفى الكتمان اعتراف بأن الامر أوقح أو أسخف من أن يذاع — هل يقابلها اليوم أو أنه يفر من لقائها ؟ ! واذا قابلها فكيف يكون المشهد؟. وترددت بين أن تذهب وأن لا تذهب . ولكن الحب

كان قدصرَّح فى فؤآدها ، واخضع كل جارحة منها له . فهى ذاهبة أرادت ام لم ترد .

والواقع أنه حين عاد رمزى الى داره ، لاذ بغرفته وقد احتله امتعاضُ مَن رأى شيئا كريها ، أو من وقف موقفا لا يرضاه . وخطر له أن يبادر باطلاع والدته على ما جرى ، ففى هذا برهان على حسن نيته . وتردد . . ثم رأى أن يترك الامر لظروفه على ان يتحاشى لقاء حواء إلى حين . ولكنه تبين ما فى هذا من معنى القسوة منه . وادركته المرثية لتلك المسكينة التى أفنت شبابها كداً وجداً ولم تفز بغير ضروريات الحياة ، وقرر أن لا يشعرها بأن اطلاعه على حالها المعيشية أثَّر البتة فى احترامه لها ، وتقديره اياها . فقابلها هاشاً على عادته ، وان كان فى عينيه خجل لم يستطع التغلب عليه

وتلاشت مع الايام غمة تلك الزيارة . وعاد شأن حواء ورمزى الى نصابه . بل ان رمزى شاورها فى بعض

شؤونه الخاصة ، ولم يكن فعل ذلك من قبل . فابتهجت بأن صارت منه موضع السر والشورى ، واعتقدت إيمانا بأن الفتى يدرج الى حبها حثيثا ، ولن يطول الامد حتى يكاشفها به .

وفى يوم ، دخلت عليها فريدة هانم مشرقة الوجه، بارعة الزينة وقالت :

— كفاية كدا درس النهار دا . .

— ايوه ، كفايه كدا درس النهار دا ..

وكان رمزى دخل أثر والدته وكرر عبارتها مداعباً ويداه تعملان فى ربط رقبته . فقالت زيزى فى دهشة

— ليه ياماما ؟

فقال رمزى يتابع دعابته :

— قولى لها ليه يامامًا

أما حواء فمدت إلى القادمين نظرة المستفسر . وكانت زيزى قامت عن كرسى البيانو ، فجلست عليه الوالدة

— علشان تروحى التياترو

ثم امرتها بأن تذهب فتستعد . فخرجت الصغيرة جريا وتزأط فرحاً . وأتم رمزى دعابته بأن تبعها وهو يضرب لها ركبتيه . وحولت حواء نظرها إلى فريدة هانم ، فأنهت إليها أن الباشا كان احتجز مقصورة لحفلة العصر من اليوم ، وادعت أن النية كانت معقودة على ان تكون حواء معهم . ولكن الباشا جاء منذ حين فاعلن لها عدوله عن الذهاب ، وطلب إليها ان تصحبه لزيارة سيدة يعرفها اسمها « تفيده هانم » لأنها مريضة وقد استدعت طبيبا ، وليس عندها من يحسن التفاهم معه .

— والحقيقة انا لا استظرف الست دى ابداً . .

وتنبأت حواء بما سيكون ، فقالت ببساطة تخفى ورائها أغراء صديقتها على أداء ذلك العمل الخيرى .

— لكن ما دام الست تعبانه . . والدكتور . .

— آه لو كنت تعرفيها ؟ !

وأستطردت فريدة هانم ترسم صورة لتفيدة هانم فهى أرملة أحد الضباط ، طويلة ولها مناكب رجل ، وتدعى لنفسها حكمة الفلاسفة وذكاء المخترعين مما جعل زوجها المرحوم يعمل برأيها فى تصريف الجيش ؟! لذلك ترى من كمال مظهرها أن تكون متجهمة الوجه ، وأن لا تفتح عينيها أو تحرك فكيها حين تنثر الدرر الغرر . ثم يخونها الادعاء فتشكو نصف دستة أمراض فى جسدها شكاية تحار منها نصف دستة أطباء.. ثم ارتباكات قضائية يسببها لها « البك اخو المرحوم » وتحتاج فى تفهمها إلى نقابة من المحامين .

ورفعت فريدة هانم يدها إلى ظهر البيانو فضربت رأس مسخ تقوم على زمبرك ، وأكدت أن هذا بالضبط ما تفعله تفيدة هانم حين تتكلم .

— انا مش عارفه الباشا معجب بايه فيها ؟ و ليه شاغل نفسه بها .. يمكن ..

وغمزت بعينها وتضاحكت

ودخل رمزى فنظر إلى والدته نظرة أدركت معناها وقالت وهى تنظر إلى حواء :

— طبعا . طبعا . تروح معاكم . . ! إن كان على التواليت . . تعالى عندى فى الأوده . . وإن كان على البيت عندكم . . أنا أبعث حد من الخدامين يدّيهم خبر

— عال . عال . انحلت المسألة

قال رمزى ذلك وجلس بدوره إلى البيانو يعبث بمفاتيحه . وتبعت حواء صاحبة البيت إلى الداخل وقلبها من السرور فى ألَم

وركبت حواء السيارة مع رمزى . وجلست إليه فى المقصورة ، لا شريك لها إلا زيزى فكانت خير وسيط فى تبادل الحديث بينهما ، وإرسال الدعابة من أحدهما لما كانت تثيره الصغيرة من أسئلة أو تبديه من خوف

أثناء التمثيل . فكانت ليلة عدتها حواء نهاية السعادة وجماع الحياة .

من هذا وهذا كثر أشراف حواء على مروج احلامها ، وقد ألِفَتها ، فهى تمرح فيها ، وتنهل من مائها الرقراق . ويدركها رمزى عند جدول أو تحت دوحة اصطفتها هنالك ، فيباغتها بقوله :

— أهذا أنت ؟

ولكنها الأن تعرف أنها تجيبه بقولها :

— نعم يا حبيبى . إلىّ . إلىّ . .

وتهوى بين ذراعيه

— أجذبنى وراءك فنجرى . .

و يجريان بين الشجر الميَّاس والزهر الباسم ، و يقفزان من جدول إلى جدول ومن قنطرة إلى أخرى حتى يصعدان فوق ربوة عالية تشرف على المحيط اللانهائى ، فيرتميان على العشب وهما يلهثان تعباً وجذلا . ثم يضمها وتهصره ،

ويقبلها وتشفى منه غلة « سالومية » وتستيقظ متخدرة الأعصاب بنشوة دونها أمتع متاع الدنيا . . وفى اليوم التالى ، حين تقابل حواء فتى أحلامها لحماً ودما ، تئن جوانحها بالرغبة فى أن تفتح له ذراعيها وتقول « ها أنذا يا حبيبى . الىّ . الىّ . » وأن تروى له ما كان لها معه من متعة ونعيم . . وتمسك الكلام وكاد يفر من شفتيها

الى أن جاء يوم . . . .

الفصل الثامن

نظيم باشا محق فى غضبه .

وفريدة هانم محقة فى ثورتها .

فهو له وجهة نظره الدقيق ، وحيثياته الوجيهة . . .

ووعد سبق منه ! !

وهى لها المؤهلات ذاتها بدقتها ووجاهتها . . ووعد سبق منها ! !

ولكن الغلطة كانت فى أن كلا منهما كان يعمل على جهل من الآخر ليحدث فى النهاية مفاجأة وسروراً وكان الباشا واثقا كل الثقة من أن زوجه ستصنع من جسمها قوساً ينطبق على كرشه حين تعانقه حمداً له على

ما فعل . وتقول بين قبلاتها « أنت عظيم يا باشا ، واسع الحيلة ، بعيد النظر » ولو لم يبادر ، لبادرت هى ، وهى على يقين من أنه سوف يضمها إلى صدره ويقول « هكذا . هكذا . وإلا فلا . لا »

ثم حدثت المفاجأة ، فلم تحدث سرورا ولا قبلات ولا اطراء . بل أحدثت وقع قطارين تصادما . وبمعجزة من السماء نزل السائقان ينظر كل منهما إلى الآخر .

وكانا فى غرفة النوم . هذا عند الباب وقد انتهى على الفور من ضرب الأرض بقدمه ضربة اهتزت لها أثباتا لأنه رب البيت ورجله والمتصرف فى شؤونه عامة وفى شؤون ابنه بصفة خاصة . . والمرأة أيًا كان مستواها ، ومهما كان علمها ناقصة عقلا وحنكة وتجربة . والواجب عليها شرعا ولياقة أن تنصاع إلى الرجل ، لا أن تجرى فى رعونة وراء عواطفها .

أما فريدة هانم فهزت أكتافها لاهتزاز الأرض .

فقد تغير الزمن ، ودارت الأيام بغير ما يدور فى خلد الرجال . . ولم تعد المرأة تلك المخلوقة الخاضعة الخانعة الناصرة زوجها مخطئا ومصيبا . . ألم تحمل المرأة علم الثورة إلى جانب الرجل ؟ . . ألم تعرّض النساء صدورهن بشجاعة لحراب الغاصب ؟ . . ألم يحملن شطراً باهظا من مسؤليات النهضة ؟ ألم يكن لهن رأى له خطره فى المواقف السياسيه المختلفة . . ثم هذه هى الجمعية وهذا هو المشغل تسام فريدة هانم فى إدارتهما وتسير بهما مع أترابها من نجاح إلى نجاح ؟ ففيم زهو الرجل ، وعتوه ، وتسلطه تسلط الجبار ؟

وساد الصمت . وحاول كل أن تتجانس وقفته مع الموقف فنفخ الباشا أو داجه ، وقطب ما بين حاجبيه ، ومد قامته ، وفتح صدره . . فنجح . . ولجأت فريدة هانم إلى تقليد غضب « البريمادونات » فمطت شفتيها ، ونكست رأسها الى صدرها . ومالت بخصرها الى النافذة

أكثر مما يجب .. فلم تنجح .. مع أنها كانت أشد إنفعالا وأصدق غضبا . وكانت مصممة على أن تثور إلى النهاية . وتمانع الى النهاية على حين كان الباشا مهوشا أكثر منه غاضبا لذلك اغتبط بنجاحه وخيبتها . وأيقن أن الأمر سيجرى على إرادته . فتقدم إليها حتى لم يبق إلاَّ القليل أو دون القليل بينه وبين جسدها الماثل ، وقال فى ملاطفة :

— أنت زعلانة صحيح ؟

— بالطبع

واعتدلت ، فانعدم دون القليل الذى بينهما ، فأربتها على خدها ، فأشاحت عنه وقال :

— تأكدى إن مافيش نسبة . .

فقاطعته وقد ضربت عتبة النافذة بيدها

— لكن أنت أحرجت مركزى يا باشا

— أنا راح أعمل . .

— مش عاوزة حد يعمل لى حاجة !

— أنا راح أعمل كل شىء يرضيك

ثم أربت ظهرها وقال :

— أنت تفهمى الدنيا زى واحد عجوز فى سنى ؟

هنا توارى الغضب من وجه فريدة هانم ليفسح المجال لخجل الطفولة . وتلاشت فكرة الثورة وعلمها وتعريض الصدور الناهدة للحراب الخ الخ لكى تطمئن النفس الشابة التى لا تفهم الدنيا فهم هذا الزوج العجوز..

فى هذه الأثناء كانت حواء فرغت من الدرس ، وإنما تطيله لأن رمزى مر بها منذهنيهة وطلب إليها أن تنتظره ريثما ينجز شأناً لوالده . فان لديه مايريد أن يخبرها به . فهى إذن مسرورة وتنتظر سروراً . وراحت تعيد على زيزى « فوائد البقرة » وتعدد تلك الفوائد على أصابع الصغيرة دعابة منها .. وإذا فريدة هانم أقبلت فجلست ثم صرفت ابنتها . وأدركت حواء من تهالك صديقتها على المقعد

ومن جد لهجتها حين أمرت زيزى بالانصراف ، أن بصديقتها هما ، فابتدرتها قائلة

— ايه المسألة ؟

— أنا فى غاية الكرب

— لا . لا ؟ !

— ومش عارفة أودى وشى فين ؟

فحملقت حواء وقالت بدهشة ولهفة :

— عجيبة ! ازاى ؟ !

وخطر لحواء ربما أن يكون الأمر خاصاً بها . وأن تكون فريدة هانم حضرت لتخبرها بما وعدها به رمزى وأن عجلته وتواريه ليسا فى شأن لوالده — كما أدعى — بل فرارا من خطورة الأمر . فدوت فى قلبها صدمة هائلة ، ارتفعت لها يدها اليه على غير إرادة منها . وسهمت فى الوجه المكفهر أمامها ثم قالت :

— ايه ؟ ايه الخبر ؟

— الباشا تصرف تصرف مش كويس أبداً .. من غير علمى

فلم يفد حواء هذا التصريح كثيراً. وودت لو أن ترى رمزى فى هذه اللحظة لتعرف فى وجهه ما وراء الأكمة. وهمّت بأن تتلفت حولها لعله يكون فى زاوية يتوارى خجلا .. ثم أحجمت. فتحركت رأسها من أثر التردد حركة عصبية أغضبتها. على أنها تعملت الابتسام وقالت :

— أى تصرف ؟!

— أنا أقول لك ، واحكمى بنفسك

وتناولت مروحة من منضدة أمامها ، وجعلت تهوّى على وجهها طلباً للهدوء. وفى التوّ رنّ جرس التليفون فى الصالة ، ثم دخل الخادم يطلب سيدته للتكلم

— الو

— . . .

— أهلا وسهلا . . ازيّك

— . . .

— الله يبارك فيك . انما ياختى انت عرفت . . وعرفت من مين ؟

— . . .

— ياسلام ! على كدا البلد كلها عرفت قبل أنا ما أعرف

— . . .

— لكى حق ، شىء ما . . شىء ما يدخلش العقل انما وحياتك أنت . أنا ما كنت أعرف شىء عن الخطوبة دى أبداً . أبداً وحياتك . تصدقى إن الباشا جاب لى سيرة الخطوبة دى غير دلوقت . ولو كنت كلمتينى قبل شوية كنت ظنيتك بتعملى كدبة ابريل مقدما

— . . .

— رأيى ؟ حسرة علىّ . . أنا بقى لى رأى ؟ ! الباشا

فضل رايح لتفيدة هانم ، جى من عند تفيدة هانم ، وأنا بسلامة نيتى فاكراه بيساعدها فى قضاياها ومشاكلها . اتابيهم الاثنين بيطبخوا الطبخة سوا . .

— . . .

— رمزى كان يعرفها ؟ لا والنبى أبداً ، ولا عمره شافها ، ولا أنا حتى ما كنت شفتها إلا لما رحت أزور نينتها تفيدة هانم . وهى عيانة . . ألو . . أنا بزعق على آخر حسى يمكن حتى الجيران سمعتنى

— . . .

— شافهم فى العتبة ؟ أه . افتكرت . صحيح صحيح الباشا قال لى أنه انتهز إن النهاردا الجمعة واخد رمزى معاه وتفيدة هانم أخذت بنتها معاها وراحوا كلهم المحكمة المختلطة يدفعوا رسوم ما أعرفش ايه ...

— . . .

— ما تجى تباركى له انتى . دقيقة والثانية تجيبك

عندنا . . أوروفوار

وكانت حواء فى مكانها تنصت فى ذهول من يسمع الحكم عليه بالأعدام . ثم تعطلت حواسها ، فلم تعد تسمع إلا طنيناً ولم تعد ترى ماحولها إلا ظلالا وصارت فى شبه غيبوبة مرت على خاطرها أثناءها مناظر مبهمة . وليس بين أعمال هركيوليز ما هو أصعب من جهدها حين قالت لفريدة هانم « مبروك » وعادت فريدة هانم سيرتها من المقعد ومن المروحة ، وشرعت تذكّر حواء بيوم المسرح . وباهتمام الباشا بتفيدة هانم ذلك الاهتمام الذى انتهى بخطوبة ابنتها لرمزى فى حين أنها كانت خطبت له ابنة صديقة لها أجمل من تلك وأعرق حسبا ونسبا .

ومن ثم كانت معركة غرفة النوم

وقامت فريدة هانم إلى التليفون — من تلقاء نفسها هذه المرة — ، وأعادت القصة بحذافيرها مرة أخرى . وما هى إلا دقائق حتى جاءت المهنئات بالخطوبة وبأطيب

التمنيات ورحن يضحكن ويتماجنَّ . وأغلبهن صديقات لحواء . حتى أصبح من الصعب عليها أن تنصرف بطريقة كيِّسة . بل لقد طلبن إليها العزف . فأقبلت حواء تقطع نياط قلبها ونياط البيانو . ولما فرغت بالغن فى تهنئتها بما حباها الله من روح وسحر أداء . ثم استأذنت فى الأنصراف . وعند رأس السلم المطل على الحديقة نادت فريدة هانم ابنها — وقد لاح — أن يتشبث بالهاربة فاعترضها وهو يقول

— على فين ؟

قالت حواء بابتسام وإشراق تعملتهما :

— مبروك . . ألف مبروك . . أنا طبعاً كان بودى أبقى معاكم أطول مدة ممكنة فى الفرصة السعيدة دى ولـكن أنت نفسك لاحظت امبارح انى متعبة ومريضة

فاطرق رمزى حياء ثم قال يعتذر عن عدم رجوعه اليها حسبما وعد .

— كنت مع بابا . . هنا . . فى أودة الكاتب

وأشار إلى غرفة صغيرة بجوار باب المنزل. وفى هذه اللحظة أقبل الباشا من تلك الغرفة ، وقال وهو يصافحها ويتهلل بشراً :

— هيه . . إيه رأيك ؟

وظل ممسكا يدها ويشد عليها ، وشرع ينهى اليها أنه هو والمرحوم ذهنى بك كانا صديقين حميمين منذ كانا ضابطين صغيرين فى سواكن . فلما بلغ صديقه السن القانونية ، استبدل معاشه من جهة وباع ما يمتلكه فى القاهرة من جهة أخرى واشترى عزبة تجاور عزبة نظيم باشا . كانت فى ذلك الوقت تباع بالمزاد العلنى . وكان رحمه الله ينتهز مثل هذه الفرص . فلما مات ومات أكبر أولاده فى الرذائل والموبقات . . أشرف أخو ذهنى بك ، على الورثة والتركة ، فأساء التصرف ، واستباح مال اليتامى . . واشتكت فريدة هانم الأمر إلى البائنا . .

واستنجدت به ، فلما أحسّ عم الأولاد بذلك ، أقام الصعوبات والعراقيل فى المحاكم وغيرها . ولكن نظيم باشا هزمه على طول الخط . . ولما ذهب أمس الأول فقط يعلن لتفيدة هانم نصرها النهائى ، جاءت فكرة خطوبة ابنتها الكبرى . . سعاد . . لرمزى . وتم الاتفاق — على بركة الله

ولم يبق فى ذهن حواء من هذه السيرة كلها إلا «على بركة الله» فرددتها ، وانصرفت على رغم التشبث بها . .

الفصل التاسع

الوقت بعد الظهر . والمنزل الصغير يشمله السكون المألوف . ليس فيه من صوت غير وقع حذاء الحاج يصعد السلم ، درجة .. درجة . . بطيئاً . . ثقيلا . . ثم ما عتم أن سكت . لأن الحاج تردد ، وحك يافوخه حكا تضرب به رأسه الرقم القياسى ضد الادماء . فلم تجد عزيمته بداً من أن تنشط . وكان مظهر هذا النشاط أن أخذ يهبط السلم درجة . . درجة . . بطيئاً ثقيلا . . حتى عاد الى مكانه من غرفته ، فاسند رأسه المتعب بيديه .

هذه الحال الشاذة لم تكن وليدة الساعة فى نفس إمام ، بل وليدة الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من

صباح اليوم . وكان الحاج فى حال طبيعية بحتة. وكان مخلداً الى غرفته ، ومعنى هـذا الاخلاد أن يكون دائم الحركة ذهابا وإيابا وانحناء واستواء حتى ليحسبه الرائى مأجوراً أجراً حسناً على احـداث اكبر مقدار من الفوضى فى محتويات هذه الحظيرة ، ومحتوياتها شتى ومتنافرة ، الجدير بالذكر منها سرير من جريد النخل عليه مرتبة من قش الأرز تعادى به الزمن والاستعمال حتى تكتّل وتصلّب ، وعلى السرير كتب وخبز ومرآة عديمة الشكل ، وعمامة الحاج اذا لم تكن فوق رأسه ، ومنشفة للوجه لا يجد الانف بين قطوعها مكاناً إلا بالمهارة والحيلة . أما اللحاف فقد يحتل جزءاً من فراغ النافذة ، وأما الوسادة فلها رحلة النهار والليل ففى الليل تؤدى عملها كاحدى بنات جنسها ، وفى النهار تكون على الحصيرة يجلس عليها الحاج فوق الفراء الذى تنعم به عليه « الست الكبيرة » كل عام ، وفى احدى زوايا الغرفة حبل مشدود ينوء بحمل من ملابس لم يعد الحاج

يستعملها اشفاقا على نفسه وعليها . . إنما يحتفظ بها وفاء لعهد السنين الطوال التى قضتها فى خدمتـه ، أما الجبة والقفطان الحاليان فلهما مسمار خاص ، على أنه ليس بالمسمار الوحيد ، بل هناك كثير غيره ، فواحد تتدلى منه زجاجة ، وفى الزجاجة زيت ، وثان يحمل مصباحا ، وللمصباح هباب على الحائط ، وثالث لجراب فيه المصحف الشريف ، ورابع وخامس . . . وخامس عشر ! ! وفى كل مكان صناديق من ورق أو صفيح محكمة الغلق ليس من يدرى سوى الحاج ما فائدة الهواء المحبوس فيها .

كان إمام مخلداً الى غرفته ، وفى الساعة والدقيقة السالفتى الذكر ، طرق عامل البريد الباب ، ودخل ، وأسلمه خطابا ، وانصرف ، فى غير ما زمن ! ! فوقف المرسَل اليه مشدوها من المفاجأة . ثم عمد الى النافذة فقرأ الاسم والعنوان فاذا بهما صحيحان ، ولهما مقدمة فياضة بألقاب التبجيل والتعظيم

ممن الخطاب ؟ وماذا عسى يحتويه ؟!

وأرتج على ظن الحاج ، ولم يحرظنه تفسيراً لهذا اللغز .. ثم قرأ الخطاب أخيراً . . فامتقع لونه ، وتراخت عضلات وجهه . . واتسعت حدقة عينه اليمنى ، وصار انموذجا بديعاً لمصور ماهر ! ! . هذا شعر وهذا نثر فيهما اعلانٌ لغرام ، وبثٌ للوعة وهيام . . من مطلعه « يانور عينى » الى امضائه « شفشأ »

جعل هذا الاسم العجيب يقفز فى ذهنه قفزات بهلوانية كان فى بعضها خطر على جمجمته . . من تكون « شفشأ » ؟ وأين رأته ؟ ولماذا شغفها حبه بهذا الكم الجنونى ؟ ! فما هو بالشاب الذى تفتن العذارى فُتوّته . ولا هو بالممول الذى تستغوى القلوب ثروته ، ولا هو بذى الجاه الذى يشفع له عند الكاعبات الناعسات الطرف الحسان ! . هل كانت « شفشأ » هذه فى حال طبيعية من عقلها حين كتبت اليه ؟ لئن لم يكن بها مس فقد

أوشك أن يصيب الحاج هذا المس . وخطر له أن يلجأ الى الشيخ مصطفى يستطلع رأيه ، وكبر عليه الأمر . وها هوذا هم بأن يصعد السلم لعله يجد عند الجدة الهدى . ولكنه تردد ، وعاد الى مكانه من غرفته مسنداً رأسه لتحتمل دوران الأرض فيها .

وكان الدوران عكسياً . أرجعه سنة فسنة ، وخمساً فاخرى ، وعشراً فثانية . فاذا به فى عنفوان الشباب ، وقد ترك الأزهر ليشق طريقه فى الحياة . وكان أول طريق شقه هو « حارة الأتراك » وأول باب اقتحمه كان لمنزل خرب اجتمع فى أرجاء صحنه الواسع شمل الكثير من أحجاره وأخشابه بعد طول التفرق فى الحيطان والأسقف . والمنزل لأرملة وقور تجلس عند الباب الخارجى ولها فى شراء بقايا الخبز من المجاورين تجارة . . ولها ابنة أجرت عليها الطبيعة قانون وراثة الأمراض ، فقضت لها بصوت أبح ، وأنف ضامر كريه . فاتخذها قساة القلوب من الحى

هُزأة يسخرون منها فى روحاتها وجيئاتها حتى غدت لا تروح ولا تجىء . وانقطعت لخدمة ما لديها من أوز وفراخ ، فهى تطلقها سحابة النهار فى الفناء . وتقوم على حراستها . وفى الليـل تسوقها الى الاقفاص . وكان بينها وبين رعيتها لغة وتفاهم . . فبأصوات تحـدثها يقبلون ، وبأخرى يدبرون .

ولم يكن « إمام » قاسى القلب، فلم يسخر من الفتاة المسكينة . بل لم تمض عليه أيام فى جيرتها حتى كان لا يقل عن أذكى الديوك فهما للغتها . فاذا ما أحـدثتها صباحا ، صحا من نومه وحياها . ويعود فى المشاء ليسمع منها أمر المبيت .

وعاد إمام يوما ، بعد صلاة العصر فألفى فتاته تطارد فرخة شذت عن الجماعة . وتخشى الفتاة أن تسقط الفرخة البلهاء فى بئر مجاورة ، فاستنجدت به . وياسرعان ما راح إمام يلوح للهاربة بعباءته كأمهر « توريا دور » ويجرى وراءها

ولـكن فى الاتجاه المحظور . و بصعو بة شرحت الفتاة له وجهة نظرها ، فلم يقتنع إلا بعد أن وقفت الفرخة على حافة الهاوية ، وجعلت تضرب بجناحيها، والفتاة تضرب خديها وقلب إمام يضرب فى صدره ! ! وفى حالة اليأس هذه أتى إمام بحركة فى غاية الرشاقة ، كادت تكسر منها ساقه ،ولكن الفرخة طارت عن مورد الردى . ووقفت وسط الفِناء . وقفة المستسلم . فتقدم اليها إمام ببطء و زهو ، فلما أهوى عليها ، صاحت الفرخة ضاحكة، واعتصمت برأس كومة من الاحجار . فأسرعت الفتاة تتسلق الـكومة فى أثرها ، ولـكن الحجر تخلخل تحت قدميها ، وفى لمح البصر كان امام ممسكا بيدها . وزاد التخلخل ، فهوت على صدرها ، ثم سقطا معاً على الارض وهى بين ذراعيه . وفى هذه اللحظة دخلت ربة البيت . . .

وكان من هول الذكرى بعد ذلك أن عاد امام الى حسه ، فاذا نجية أمامه وهى تقول فى تلـكؤ وأنوثة :

وكان يستعين على استنزال وحى البيان بمط شفتيه ، وزر عينيه ، تباعا أو معا .

— اسمع يا حاج . بس أوعى تزعل .

فأرسل الحاج اليها نظره وهو صامت . وقالت الفتاة

— جالكش جواب ؟

— جواب ؟ ؟

قالها بلهفة مجرم يحاول انكار تهمة ثابتة . وأخفى اضطرابه بالعبوس . وقالت نجية وقد ضاعفت استعطافها

— كان . . . كان شفيق . . بس والنبي ما تزعلش يا حاج . . شفيق لما سافر أول امبارح ، قال لى أنه راح يبعت لى جواب . . على اسمك . . يوصل النهاردا . . .

فنظر اليها فاغر الفم ، مسترخى عضلات الوجه ، وقال بصوت دون الخفيض كمن يخاطب نفسه

شفيق . . شفشأ . .

— هو . هو . والنبى يا حاج .

فتنهد أمام تنهداً طويلا كأنه بالون ثُقب ثم أنه استل الخطاب من عبه ، ولوح به فى وجه الفتاة

مؤكداً لها أنه لا شك فاضح أمرها ، وقاطع عيشها . . . ولكن الشاى والسكر اللذين قدمتهما له الفتاة فى هذه اللحظة ، مضافين الى قدر مثلهما من حنكة الشيخوخة أحدثا فى فؤاد الشيخ مَلْغَما عاطفياً احدى خصائصه الرثاء للشباب المعذب . فهدأ ثائره ، وشرع يقرأ عليها الخطاب بطلاقة هى فى الواقع نتيجة حفظه له عن ظهر قلب ثم بدأ يكتب له الرد .

فجلست نجية أمامه تحمل الدواة . . وراح يصيب منها بقلمه كل مرة ما يكفى لتلويث أصابعه ، ولاحداث البقَع على الارض ، وعلى الحائط ، وعلى الورق ، ثم للكتابة واسترسل فى ادعائه « أنه لو كان البحر مداداً ، والاشجار أقلاما ، لجفيت الاقلام دون بث السقام . ولجف المداد قبل شرح المراد . . . . » وكان يستعين على استنزال وحى البيان بمط شفتيه ، وزرعينيه ، تباعا أو معاً .

وفيما هما كذلك ! إذ دخلت حواء . وكان من

عادتها أن تحيّيَ الحاج كلما رأته . وتأهب الحاج للتحية بأن أخفى ما فى يده . ولكن حواء لم تفعل هذه المرة . وصعدت السلم على الفور . وما كاد أهل الغرام يحمدان حسن حظهما على هذا الاغفال ، حتى سمعا الجدة تنادى نجية فى لهفة لم يعهداها من قبل .

الفصل العاشر

— مالك ياحبيبتى ؟ مالك ياستى ؟ . اسم الله عليك . اسم الله ! . .

قالتها الجدة بصوت يرتعش ، وقلب يرتجف . وقد ابردَّت أطرافها حتى تأذَّت حواء من وقع أنفها على خدها حين أكبَّت عليها . ولما لم تجبها حواء ، تحولت عنها وأدارت حولها نظرات الحائر الذى يريد أن يأنس بأى شىء ، وأن يستنجد بكائن من كان . لذلك نادت الخادمة ودخلت نجية فراعتها غرابة الحال ، فلبثت مشدوهة حينا ثم مشت على حذر إلى سيدتها الكبرى تستطلعها الخبر .

— مال ستى الصغيرة ؟

— مش عارفه ايه اللى جرى لها . . إيه اللى جرى لها مش عارفة ! !

وكيف للجدة أن تعرف ؟ لقد كانت جالسة جلستها المعهودة فى مكانها المعهود، فسمعت حواء تصعد السلم ، فتوقعت أن ستدخل حواء إلى غرفتها تبدل ثيابها ثم تجيئها تشرب معها القهوة وتستريح ـ جرياً على عادتها ـ ولكنها لم تفعل ، بل ما كادت تتوسط الصالة حتى ارتمت على مقعد إلى جانب المائدة ، وأخفت وجهها فى ذراعيها ، فضربت الجدة صدرها وهبت من مكانها تتعثر فى أدوات القهوة ، ولم تبال بمخالب القط فى قدمها حين اعترضها فداست عليه .

وأعادت الجدة استفسارها متوسلة اليها بالنبيِّين إلاَّ ما أجابت . وخطر لها أن تأتى بماء النعناع لها فهو منعش ومفيد . وهمت بالذهاب ثم لم تشأ أن تبعد عن الحفيدة العزيزة طرفة عين . وفى هذه اللحظة تضاعفت

عتمة المغرب فى عينيها ، فأمرت نجية بأن تضىء المصباح وبأن تجىء بالنعناع . . وطلبا آخر لم تتمه ولوّحت بيدها تنفيه . . فصدعت نجية بالأمرين ، وجاءت من تلقاء نفسها بقدح من الماء ، وما وضعت ما بيديها على الطاولة حتى أمرتها الجدة بأن تنادى الحاج امام . وكان من لهفة العجوز أن خنقت الفتاة العَبرة . ووضح ذلك فى صوتها وهى تنادى من رأس السلم . عندئذ رفعت حواء وجها مصفراً وعينين مطبقتين نصف إطباق وقالت .

— مافيش لزوم . مافيش لزوم

فقالت العجوز وقد دب فيها الأمل .

— طيب ياحبيبتى . . بلاش يابنت . . مش تقولى لى مالك يااختى

وقالت نجية وهى تبتسم وتمسح دموعها :

— ستى !! . . .

ولم ترد . وقالت حواء وقد كرهت أن تنزعج لها

الجدة هذا الانزعاج

— مافيش . . أنا تعبانة شويه

أما الحاج فكان قد حسب أن اغفال حواء له عند دخولها أن هو إلا استنكار لوجود الخادمة عنده، وأن ما وصل إلى مسمعه من همهمة أثر استدعائها ليس الا اعلاناً لهذا الاستنكار، ورأى من الخير أن يغادر المنزل لينجو بنفسه . . وليضع الخطاب فى صندوق البريد

واجترعت حواء ما قدمته لها الجدة من ماء ونعناع ثم قامت إلى غرفتها فاستلقت على سريرها . وأرادت أن تشغل الجدة عنها فطلبت شايا . . فانصرفت العجوز تجر ساقيها ، وتلعن المدرسة والجمعية والمشغل . . والخادمة تساعدها فى إعداد الشاى ، وفى استنزال اللعنة . . وجعلت حواء تشد على قلبها رحمة به وبالجدة المسكينة . . وجاء الشاى ، فأفاد حواء بعض الفائدة ، فمسحت جبينها ، وابتسمت ابتسامة خفيفة .

— استريحتى يا حبيبتى ؟

— الحمد لله

— لهألف حمد

وصاحت نجية فى سرور « ستى » ولم تزد أيضا ، فابتسمت لها حواء . واستطردت الجدة تقول :

— ايه كان داكله؟!. ماقلت لك ما تتعبيش نفسك أدكدا . . أهو جالك كلامى . .النبى يارب ما تدخل لنا ردى أبداً (و بعد فتره قالت) الأحسن تقلعى هدومك علشان تخدى راحتك . .

فاستجمعت حواء قواها وأجابت الرجاء ثم عادت إلى استلقائها وجلست الجدة على شيزلونج مجاور لتكون دأمة النظر إلى الحفيدة العزيزة . وكانت الخادمة أضاءت مصباح الغرفة حين شرعت سيدتها تبدل ثيابها ، فأمرت حواء باطفائه : فسادت العتمة ، والصمت . وسمع صوت بندول الساعة فى الصالة . ولكن الطمأنينة لم تسد .

وعادت إلى الجدة فكرة استدعاء الحاج إمام ، ثم ذكرت أنه لا شك يصلى فى الجامع كعادته . فلاذت بالله تدعوه سراً وتتوسل اليه .

وكان للراحة ولهذا المحيط الرحيم أثرهما فى نفس حواء . فتبادَر الى ذهنها أن شيئا لم يحدث ، وأنها كانت تحلم . . ولكن جرس التليفون عاد يرن فى أذنيها ، وصوت فريدة هانم يعود الى ذهنها حياً جليا . . . ثم الباشا وابتساماته الحيوانية ، وقصته الطويلة المملة . . « على بركة الله ! ! » فكررتها ، وهزت اكتافها ، ومضت تناجى نفسها « هذا بله صريح .. لقد اكتسب رمزى من هذه الخطوبة عزبة ان لم يكن حبا . هذا ما كنت سأصرح له به حين سألنى رأيى . . أما أنا . . فمالى ؟ . أى شىء كان لى منه وفقدته حتى أذهب روحى حسرات عليه ؟ ! لم يكن حيالى الا جامداً بارداً ، وما كان تحدثه الىّ الا لهواً منه . . وهو على صبيانيته محتفظ بشخصية

الارستقراطى أمام بعض فلاحيه المقربين اليـه . . انتهى الأمر . . فليهنأ بعروسه . . وبالعزبة الجديدة . . انى لم ابلغ من السن عتياً ، ولن أعدم . إذا شئت. أحداً يحبنى وأمامى أيضا أن أضاعف جهودى فى الحركة الوطنية ، فاصبح شخصية يشار اليها . وسأعمل . » وأرادت أن تُثْبتَ لنفسها قوتها وعدم اكتراثها ، فأخبرت الجدة بخطوبة رمزى إلى ابنة تفيدة هانم أرملة ذهنى بك

— بنتها مين ؟ . . دولت ؟ !

فهزت حواء رأسها بالأيجاب

— ماتقوليش كدا !. هى دى تتنظر !

فطت حواء شفتيها ، وعادت الجدة تقول :

— والنبى يابنتى على رأى المثل . لولا عِلبة أم مِكّى كان حالها يبكى . . .

ومكى ابن وهمى لأم خرافية . وكان اللام علبـة سحرية حققتها الأيام فاذا بها «التواليت» وقالت حواء

وقد غلبتها العبرة :

— لـكن لها عزبة تنتظر . . .

فغرزت العجوز سبابتها فى خدها ، وسهمت حينا وهى تهتز اهتزازا بطيئا يساعدها على ماجاش فى صدرها من عواطف الاشفاق نحو حفيدتها التى تفنى شبابها على ذلك النحو المضنى ، ثم مصّت أشداقها وقالت «أنخات!» وأرادت حواء أن تضحك ضحكة عالية . ولـكن العبرة خنقتها،وطغى على تفكيرها تيار أسود يقول«... ولـكنها الفرصة أفلتت ، والحب خاب ، والقلب شاب وهرم ، ولم يفلح فى التصابى !! .. ان اثنتين وثلاثين سنة قضيتها فى رجولة زائفة أقامت بينى و بين الحياة مثل سور الصين لا حول لى الآن على القفز من فوقه ، إلى حيث الجميع يمرحن . . . امهات وغير أمهات . . وأنه ليعلو كل سنة .. كل شهر .. كل يوم .. أو أننى أهلك وأنا أضرب رأسى فى أساسه . . . » فارتعدت حواء لهذا الخاطر . وبمجهود

لاتنبهى كانت تمعن النظر فى العتمة القائمة أمامها كأنها السور الذى افترضته . ثم . . .

أى عجب ! !

لقد بدت أمامها صورة رمزى ضعيفة راقصة كما لو كانت تراها من خلال ماء . ثم وضحت شيئاً فشيئاً حتى استبانت منه أهداب العين . وهذه خطيبته تمشى اليه على استحياء . . وها هو يقبل عليها فيعصرها بين ذراعيه ويمس فيها تقبيلا . . تلك القبلات . . تلك القبلات التى طالما نعمت بها فى أحلامها . والتى كانت تود فى يقظتها لو أن تفتدى احداها بحياتها .

عند ذلك علا صدر حواء ، وعلى الرغم منها أجهشت ببكاء كان جسدها ينتفض به انتفاضاً ! ! فنهضت الجدة فى فزع جنونى . وراحت تلطم خديها دراكا وبعنف وهى تقول « بنتى . بنتى . بنتى ! ! » وجرت الخادمة إلى السلم مذعورة وهى تجأر باسم الحاج إمام .

ومن حسن المصادفة أن كان امام حضر منـذ هنيهة ، فاسرع على السلم جهده . وأضاءت نجية المصباح . والجدة ماضـية فى اللطم والندبة . وحواء على الفراش تتلوى وتنشج . . وشرعت نجية تشرح الأمر للحاج وتستنجده فى وقت واحد . . وهو ذاهل لا يصدق ما يرى ويسمع ولا يدرى ماذا يفعل .

وهنـا صرخت حواء من بين أسنانها المتضاغطة صرخة حادة كظيمة ، وانتابتها حشرجة عنيفة . وصارت ترفع يدا متصلبة أثر أخرى وتضرب بهما الفراش على الجانبين . ثم تحولت جميعها أصلد من صخر . . فارتمت الجدة عليها تضمها وتهزها . وتبـلل وجهها بالدمع ، وتستعطفها بشيخوختها ، وبحق الرباية عليها ، وبأملها فيها ، إلا ما أفاقت . . فلما لم يجد ذلك ، والحشرجة دائبة عمدت المسكينة الى صدرها تضربه تارة وتتشبث بالهواء تارة أخرى وهى تقول :

— الحقنى يا حاج امام . . انجدنى . .الحقنى . . شوف لك حل يا خويه . . ليه كدا يارب . . دى بنت مسكينة . . دى شابة غلبانة . . منكسرة تحت رحمتك . . . الحقونى بالشيخ مصطفى يا ناس . . غيتونى به ياخواتى . . روحى انت يا نجية . . .

فثارت عزة الحاج وقال يطمئنها ولكن فى عنف :

— دى مش أرواح سفلى يافاطمه هانم . . الشيخ مصطفى يعمل إيه فيها . . دا شىء من عند الله ، وحالا ينصرف باذنه . . بس اهدى وصلى على النبى . . وأنا أعرف شغلى . . .

وأكب الحاج بدوره على حواء . فتمتم بالصمدية ثلاثا . . ثم تلا صيغة الأذان فى أذنها . وما زال حتى هدأت الحشرجة ، فامسك وابتعدو على وجهه عبوس النصر الحزين . وأشار بيديه يطلب الهدوء . فربطت الجدة على قلبها ، واقتربت من السرير فاذا الحفيدة

العزيزة تتنفس فى لين النوم الهادىء . . وخيم صمت رهيب . وتعلقت الأعين بالصدر الذى يعلو ويهبط . . وبعد فترة طويلة فتحت حواء عينها ، وجعلت تفركهما بظهر يدها . فلما تبينت من حولها سألتهم لمَ هم واقفون؟ فقالت الجدة فى دهشة

واقفين ؟ ! . انت . . .

فأومأ الحاج اليها بالسكوت ، إذ كان لا يرى من الخير مفاجأة المريضة بالحقيقة . وقال وهو يحك لحيته ويبتسم .

— ما فيش حاجة . . دى كانت دوخة بسيطة وزالت بعون الله . . .

وثبّت عمامته فى رأسه اغتباطا بما أسدى ...

الفصل الحادي عشر

لم يعرف البيت الهادىء الهدوء بعد تلك الليلة ! .

فحواء تحمل فى غدواتها وروحاتها ، ونومها ويقظتها قلباً لا حول لها على حمله .. لا الحجر ، ولا الحديد ، ولا الرصاص ، ولا الزئبق باثقل منه وزنا . ولا اللهب بأشد منه حرارة . وقد شحب لونها ، وتضعضعت صحتها وكثر وجومها ، وتكرر نسيانها لأم الأمور . . بل ليحدث الحادث قريبا فتحسبه بعيدا أو أنه لم يحدث . . . فالتفتت اليها الانظار ، وتحركت ، فى سيرتها الألسن . « ماذا جرى لحواء ؟ وماهزالها والذهول البادى فى عينيها؟ مسكينة هذه الشابة ، أنها لتطمح الى مجد بعيد ، وتتكلف

من أجله جهودا تنوء بها الرجال ! ! . » ولكنّ أحدا لم يفطن الى سرها ، فهى ضنينة به حتى على توسلات جدتها ودموعها المرقرقة فى أخاديد وجهها .

وكانت تذهب الى الاطباء تحت الضغط والالحاح فيجسون نبضها ، ويتسمعون دقات قلبها ، ويمعنون النظر فى أجفانها ، ويسألونها عن الدوار متى ينتابها وكم يدوم ، واسئلة شتى غاية فى الدقة الفنية ، ثم يصفون لها حبوبا قبل الاكل ، وسوائل بعـــده ، وبرشاما كذا وحقنا هكذا بين ملطف ومقو ، وقمين بان يجىء بأحسن الاثر. ثم لا أثر . وأقبل عليها أحدهم يستدرجها فى الكلام عن حالها المعيشية ، وعن توزيع أوقاتها ، وعن أفكارها فى يقظتها ، واحلامها فى نومها بغية أن يستشف نفسها فيرى كمين الداء . وفطنت حواء الى ما يقصد اليه ، فاحترست وراوغت . على أنه نصح لها بالهدوء والراحة ، واجتناب كل مايقلق البال ويثير العواطف ، ولتضرب بالعقاقير

عرض الحائط . . . حتى بالدواء الذى وصفه ، إذا شاءت ، أو لاتتعاطاه إلّا عند الضرورة الماسّة ، ولايغرها مايحدثه من راحة فتسرف فيه . فان الاكثار منه يؤذى القلب وربما أوقفه .

وأدركت حواء فترة إرتياح لفرارها من هذا الطبيب فلما خلت إلى نفسها صاح قلبها الكظيم « يارب . . ماذا عساى أقول ؟ ! أنا التى كافحت منذ طفولتى لأكون مثلا يُقتَدى به . وخلت أننى حققت ما نصبت له نفسى . . أنا التى قضيت حياتى مخلصة لك فى عملى وعرضى . . لماذ تحطمنى هذا التحطيم . وتسحقنى هذا السحق الأليم . . يالهى ! كتبتَ على نفسك الرحمة . وأنا أطالب . ثم أطالب بحق من الرحمة . . ووعدت الحسنة بعشر أمثالها ، ولا أريد الا جزاء من عملى ! ! وقلتَ أدعونى أستجب لكم . وأنا أدعوك ياسميع ، وأضرع اليك يابصير . . هل أنت تنظر إلىّ من عليائك هازئاً . . حاشاى أن اعتقد

ذلك . . أم مشفقاً . . فلتقل « كن » فيكون لى النعيم الموفور . . إلهمنى حكمتك فأرضى . كلمنى . . فأنا لاأريد أن اتكلم إلى الناس . بل لا استطيع . . لن أجد منهم إلا سخرية بفاجرة ، أو مرثيه لمسكينة ، أو استهزاء بمعتوهة . . أنا الطاهرة ، أنا القوية العاقلة . .

وتبكى ، وتنشج . . .

وتذهب الجدة إلى اولياء الله — أحياء وأمواتاً — تلثم أعتابهم ، وتبلل ترابهم بدموعها ثم تجعل منه على رأسها . وتقدم النذور ، وتبذل الطعام لمن على أبوابهم من مسكين ويتيم . . ولا تسألهم إلى شفاعة لحفيدتها . . . وتغادرهم إلى المنجمين رجالا ونساء — تطلب إليهم تفسير حلمها . فقد عاد اليها « سرور » فى نومها ، وأومأ اليها أن تتبعه ، فتبعته إلى غرفة حواء هذه المرة . . وهناك رأت الشمعة تحترق بسرعة أكثر إدهاشا عن ذى قبل . وتحدث مادتها السائلة هيئة جسد ملفف فى غلالات

بيض . . فيكتبون لها التمائم ، ويلقّونها التعاويذ ، فتدس التمائم هنا أو تعلقها هناك ، وتكرر التعاويذ ليلا ونهاراً .. ورضيت حواء أن تحمل التمائم ، وأن تتلقن التعاويذ ، إحتراماً لجدتها ، واحتقارا للحقائق .

وذهب الحاج امام ، فمد عنقه فى الفُرجة التى تُباعد مابين أنياب الأفعى يميناً ، ومخالب الضبع شمالاً ، وظهر السلحفاة من أسفل وأظافر الوطواط من أعلى ، وأهاب بالشيخ مصطفى يطلب منه النجدة الكبرى . فبرز مصطفى ، وسهم طويلا فى عالم أسراره ، ثم وعد بأن يحضر اليهم بعد صلاة العشاء . وبعد صلاة العشاء حضر . . وجلس فى غرفة حواء جلسة المهيمن . وأمر بنار توقد فأوقدت . وبحواء تلبس طرحة بيضاء فلبست . . ومد إلى النار يداً جبارة فأحرق بخوراً جاء به ، وأمرها بأن تخطى فوقه سبعاً ، فخطت فوقه سبعاً . خائفة وهازئة معا . ثم ساد الصمت ، وتضاءل كلٌ فى مكانه ، وتعلقت

الانفاس ، ووضح صوت الساعة فى الصالة كأنه وقع خطوات الزمن . سريعة غير مكترثة . وماء القط فى وجه نجية يستفسرها مايرى . فلما لم تجبه أراد أن يلوذ بحجرها ، فانتهرته . فقنع بأن ينكمش إلى جانبها . وأثار الرجل الهائل نظراته الهائلة فى عينى حواء . ثم ارتعش جسمانه الضخم . وزاد وجهه إحمراراً . وراح يرُغى بما يُفهم ومالا يفهم . ويحدث أصواتاً وأسماء أصوات . وكلمات وأشباه كلمات . يصعُب ترديدها إلا عليه . فيها استفهام . وفيها نفى . . وفيها أمر ونهى . .

وحواء . . .

الشخصية البارزة فى المدرسة والجمعية والمشغل . تصيخ بسمعها إلى مصطفى ، وترسل تجاه ما يشير اليه نظرات خائفة . . هذه الزينة المتعالية ، تكرر الأصوات وأسماء الأصوات ، وتعيد الكلمات وأشباه الكلمات التى يفوه بها الرجل . تعيدها فى لهجة الجواب إذا استفهم ،

والتأمين إذا نفى . وفى خضوع إذا أمر، وفى دموع إذا نهى ، وما زال حتى استغرقت فى نوم عميق ، وثاب هو إلى حاله الطبيعية . فهز رأسه آسفا وقال .

— مسكينة . . دى ياحاج إمام لمستها روح من الأرواح العاتية . .

فاسرعت فاطمة هانم تقول .

— والعمل إيه دلوقتى ؟ !

وقال الحاج شيئا ولكنه ضاع فى قول مصطفى .

— الفعل فعل الله . إحنا بيدنا شىء . .

فقالت الجدة :

— آمنت بالله ! . إنما أنا ماألزمهاش غير منك

فصمت مصطفى تواضعاً

وقال الحاج يعزز تشبث فاطمه هانم :

— هو الشيخ مصطفى عاوز وصية !

وفى هذه اللحظة صاح فى الشارع أحد الباعة

المتجولين يقول « خليها على الله » فقفزت نجية من مكانها طرباً بالفأل الجميل . وكذلك سُر به الجميع ، واتخذوه بشيراً بانفراج الأزمة ما تشبثوا بالشيخ مصطفى ، ولم يدعوه يفلت من أيديهم . . ثم خاضوا فى سمر طويل تذاكروا فيه ماللجان من حسنات وسيئات . وما لأهل الباطن من أثر فعال فى تسيير الحياة الظاهرة . واجتمعت الكلمة آخر الأمر على لعن الطب والأطباء ، والعلم والعلماء ، الذين ينكرون هذه الحقائق . وبعد إرفضاض الجلسة نامت الجدة بالأمل والطمأنينة .

وجاء الصباح ، فاذا حواء أكثر ما كانت ذهولا وحيرة وخجلا من نفسها ! ! وكلما ثبت لها أن ليلة الأمس كانت حقيقة لا حلما ، اضطرب ذهنها ، وتصدعت قواها المعنوية ، وتفهت عندها الحياة ، وفقدت ألوانها ، وأدركها إحساس مبهم بأنها غريبة عن كل مايقع عليه بصرها ، أوما يجول بخاطرها . ولأول مرة فى حياتها

شعرت بالنقمة على جدتها ، وبالازدراء المطلق للحاج . . أما مصطفى فودت لو أن تظل تضربه بحذائها حتى تفتت رأسه تفتيتاً . . . هذا الثالوث القذر الذى إنتهز فرصة مرضها وضعفها ليهزمه الهزيمة الساحقة ، وليذلها الاذلال المميت . . . مالبثت أن تراخت نقمتها ، وفتر إزدراؤها ، وبصقت على خيال مصطفى كشىء أحقر من أن يشغل ذهنهـا .

ولكن — بعد هنيهة — الفَت نفسها تحدثها خلسة بأن تذهب إلى الشيخ فى حانوته تستفسره عما اذا كانت أعلنت له سرها بهذه اللغة العجيبة التى قيل بأنها كالمته بها . وتستعطفه ، وتبذل له المال ليكتم حتى عن جدتها ماعسى يكون قد علم ولـكنها طردت عنها ذلك الخاطر المهين ، وتشاغلت عنه بأشياء عدَّة . . وفجأة أدركتها قشعريرة وقالت بين أسنانها المتضاغطة : « ماذا يكون من الناس حين يبلغهم . على الأقل . أننى جلست إلى

«وخرت حواء صريعة بين ذراعيها»

الساحر ولبست طرحة بيضاء . وخطوت فوق البخور . ورطنت بالاوندى ! ! » وتضاحكت تضاحك المغيظ . . « ولكن ما الناس ؟ وما العالم ؟ ! الكل أحقار . . » وهزت أكتافها . . « ولن تكون همساتهم إلا طنين ناموسة على رأس فيل . . وأنا مازلت أنا بشخصيتى وكيانى ! ! . » على أن نفسها ناءت بهذا الفخار وتخاذلت تحته ، وشعرت بالغيظ والخجل كأن رمزى باغتها وهى فى طرحتها البيضاء .

بهذه الحال النفسية السقيمة المشوشة وقفت حواء تملى على تلاميذها أن « رجلا طوله ستة أمتار . . » فتطوعت أقرب البنات اليها تُلفت نظرها إلى أنها تعنى ستة أقدام لاأمتار : فلم تدرك حواء سهوها . وأضافت أن « عرضه متران . . » فتضاحكت التلميذات وتهامسن بالفكاهة . . وأعلنت جريئة منهن أن ربما تكون معلمتهن تريد ماتقول بذاته . فقد تكون تعرف شخصاً بهذه

الابعاد الشاذة . واصطكت هذه العبارة بسمع حواء ، فثابت إلى حسها ، فاذا الضحكات عالية ، وإذا الفصل مضطرب بالاعهد لها به إطلاقا . . فانتهرت التلميذات فجاءت مقذعة فيما بدَر منها . . فتصايحن احتجاجا ، ولم تُجد وساطة بعضهن فى إلتماس العذر لمعلمتهن التى طالما أحببنها ، والتى لم يعتدن منها إلا الكمال والأدب ، وحضرت الناظرة تستطلع الأمر . وأرادت التلميذات أن يعززن مركزهن فغالين فى ضجيجهن ، وقالت إحداهن بلهجة خطابية « نحن نحتج على الأهانة دى ! » وضربت التختة أمامها . وآزرتها ثانية فصاحت فى احتدام وكبرياء « لو سمع بابا بكدا ، ما أعرفش يعمل إيه ! » وأخريات أجهشن بالبكاء بين حقيقى فى مفتعل . وحواء صامته واجمة حائرة النظر ، وفجأة ارتجفت رجفة قاسية وأوشكت تهوى على الأرض لولا أن تلقتها الناظرة بين ذراعيها .

ولكنها كانت تذهب إلى بيت الباشا . .

وكان رمزى غيَّر نمط حياته بعد أن تم التعارف بينه وبين خطيبته . . فلم يعد يقنع بالدار أو بالحديقة ، ولم يعد يُعنَى بمكتبته يرتبها ويعيد ترتيبها فهو الآن مشغول بخطيبته لا يكاد يعود من الوزارة حتى يذهب إلى غرفة الكاتب يراجع حساب العزبة الجديدة وقد القى الباشا عبئها عليه «علشان تطوّل رقبتنا لما تبقى مسؤول عنها شرعا» وسرعان ما اعتنق مذهب والده فى أن الفلاحين أمكر من الثعالب . وأخبث من الذئاب . وأنه لا يجب أن يرثى لهم أو أن يرأف بهم ! ! . . فاذا ما انتهى من ذلك ذهب إلى خطيبته يطلعها على مجرى الأمور ، أو يصحبها إلى السينما أو يخرج بها إلى نزهة ، لذلك لم تكن حواء تلقاه إلا نادراً فاذا التقيا مصادفة استفسرها عن صحتها ، وابدى اسفه ودهشته مما تعانيه . « ولكن لاغرو . أنت يا أستاذة بتجهدى قواك وتفكيرك فى سبيل الخدمة العامة . وتحقيق مثلك العليا . وطبعاً

اذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

لكن ان شاء الله ، فى أجازة الصيف .. أظنك . . ماترفضيش كونك تجى معانا العزبة .. تهدى أعصابك و . . و . . تستريحى راحة تامة . . شهر .. شهرين . . زى ما تحبي . . .

ثم يسترسل فى سرد آماله فى زواجه ، وهو مستبشر متهلل الوجه . . .

ويمضى إلى خطيبته . . .

ويمضى حواء إلى الجحيم المقيم . . .

الفصل الثانى عشر

انتهت السنة الدراسية . .

وانتهى كل أمل لحواء . .

ثم اقترب اليوم الذى فيه « يدعو اللواء نظيم باشا السيد حضرتكم إلى منزله بمناسبة زفاف الآنسة سعاد هانم ذهنى كريمة المرحوم القائمقام ذهنى بك عبد الفتاح على نجله رمزى بك نظيم الموظف بوزارة الزراعة . . . » كما جاء فى رقاع الدعوة المكتوبة بماء الذهب . . فخرج المال لاستقباله جزافا وأدرّت الضيعتان عليه من خيراتهما جزافا .. فالفراشون فى حركة النمل ، طائفة تقيم الأعلام وطائفة تنضد المقاعد الفاخرة ، وجماعة يكنسون الأرض

رملا ، وجماعة يعقدون أكاليل الورد فوق المداخل والأبواب ، وآخرون يمدون قلائد المصابيح الكهربائية ويتفننون فى صنوف الثريات . والطهاة فى ثيابهم البيضاء مضت عليهم ليال وهم سهارى يذبحون ويسلخون ، ويخرجون من العجين فناً متعة للناظرين.

وكانت حواء اشتد بها سوء الحال .وصارت سريعة الغضب . كثيرة الدموع . قريبة الصرع . وكثيراً ما تحامقت على الجدة أو أجبهت الحاج أو انتهرت الخادمة لأتفه سبب . وكانت تشعر أن المنزل حيطانه تريد أن تنقض عليها وجوّه سوف يودى بها . وكل مافيه متجهّم كريه . تقتركه فتهيم على وجهها فاذا هى فى أماكن لا تدرى كيف صارت إليها . بل لقى مرة صاحت بالعجوز الممزقة القلب بأنها هى أس الشقاء ومصدر البلوى بخرافاتها وسخافاتها . وما تحيطها به من الجن والشياطين وأنها لو ذهبت إلى الله ما اشتكت غيرها

ولكن فجأة . . أو هو عند ما بدأت تباشير العرس فى بيت العروسين . هدأت ثورة حواء ! وهجعت نفسها حتى ارتدّت الدنيا عندها أشباحاً لا صوت لها ولا حياة فيها . وحلا لها أن تعتكف فى غرفتها فتظل مستلقية على سريرها ساعات وساعات يسترسل فيها تفكيرها دون سيطرة منها عليه كينبوع يتحدر ماؤه كيفما شاء . . فهو يستقيم ويلتوى ، ويتباعد ويلتقى ، ويسرع ويبطىء دون ضابط له أو مهيمن عليه . وما كان نصيب حواء من تفكيرها هذا إلا نصيب الحالم من حلمه ، لا يكاد يستيقظ حتى ينساه ، أو يذكر منه القليل ثم لا يُعنَى بأن يتقصاه

فلما كان يوم الزفاف ، بكرت حواء ، فأكبت على مكتبها تملأ الصحائف بلا هوادة ، حتى أشبعت نفسها وأتت على آخر ماتريد تسطيره ، ثم وضعته فى غلاف كتبت عليه عنوان رمزى . ثم ذهبت إلى جدتها

فشاربتها القهوة ؛ وآكلتها طعام الأفطار، وتحدثت اليها فى مواضيع شتى اتصلت بذكر حفلة الزفاف فقالت حواء

— ماتروحى الفرح تتفرجى ..

— أروح الفرح؟! .

— تتفرجى شويه

قمصت الجدة شدقيها، وقالت بعد نهدة قصيرة

— يالله حسن الختام بقى .

وسادت فترة صمت ، بدا أثناءها شرود الفكر على كل منهما ، ثم استأنفت الجدة كلامها .

— والنبى ما عندى فرح إلا يوم فرحك انت !

فأعادت هذه العبارة حواء إلى حسها ، وشعرت لها بوخز أليم ، وهمت أن توقف الجدة عن الكلام،ولكن حواء هدأت على غير إرادة حقيقية منها، وقالت فيمايشبه الملاطفة.

—بكره راح اتجوز زجوازه ماتخطرلكيش على بال

فالتفتت إليها الجدة دهشة متهللة وهى تقول .

— صحيح؟ ! ربنا يسمع منك .. مين ؟ . . مين هو .

ولكن فجأة . انقبض صدر حواء ، وأسفت لهذه الدعابة القاسية وقالت بابتسامة عصبية

— بكره تعرفى .. قصدى . . أ . . بكره.. بكره ..

ثم غيرت مجرى الحديث فأبدت رغبات وعدت بها الجدة عن طيب خاطر، وأسدت لها الجدة نصائح تقبلتها القبول الحسن . فتهلل وجه العجوز ، وفرح قلبها بالجلسة التى لم تنعم بمثلها منذ أشهر

وعمدت حواء إلى البيانو فعزفت اللحن الذى كانت اصطنعته لبنات المشغل . وأجادت أداءه . عند ذلك سهمت طويلا . ورن فى أذنها صوت نجيه تستفسر عما إذا كانت تشترى الغازوزة بالقرش كله أم بنصفه فقط . « لم تكن خيبة يوم .. بل خيبة العمر كله !! . » وأوشكت تبكى . ولكنها تشجعت . فقامت فتشاغلت فى غرفتها ساعة

خرجت بعدها من المنزل فوضعت الخطاب فى أول صندوق بريد صادفها . وزارت بعض الحوانيت ثم عادت بصندوق كبير من ورق مقوّى فوارته فى غرفتها

وكان قد حان وقت الغذاء . فطلبت إلى الحاج أن يشاركها وجدتها الطعام ؛ وانعكس ماظهرت به حواء من طمأنينة وسرور على نفوس الجميع فراحوا مطمئنين مسرورين. وبان ذلك فى اشراق وجه الجدة وايماض بسماتها وبان ذلك فى سرعة ذراع الحاج بين فمه والمائدة . . وتجبية على مقربة من سيدتها الصغرى متحفزة لأن تنقض عليها بأى طلب تطلبه . وأبت إلا أن تشترك فى الحديث فباغتتهم بصيحة منها قائله

— ستى ! . . خلى الحاج يحكى لك اللى قاله لنا امبارح

فاتجهت الانظار اليها مستفسرة . وعاجلها الحاج يقول ويقلد لهجتها :

— وايه اللى قلته امبارح ؟

— حكاية ربنا لما غرق المركب مش كدا ياحاج ؟..

— غرق المركب ! ؟

— والنبي ياستى دى حاجه تضحك خالص

فقالت الجدة تذكّر الحاج

— المجنونة دى تقصد حكاية سيدنا الخضر لما . . .

— آ . آ . . دى حكاية تضحك يامعونه ؟ ! أعوذ بالله ! . . دى ياحوا هانم يابنتى . .

فقالت حواء بفتور

— عارفاها .

— لما سيدنا الخضر وجد غلاما فقتله . . ووجد . .

— عارفاها . عارفاها . .

وتدخلت نجية تضحك وتقول

— والراجل الثانى بقى يقول له « ما اقعدش معاك يابو سمرا . . ما اقعدش معاك يابو سمرا ! »

فقالت حواء وقد أدركت قصد الخادمة

— قصدها تقول « انك لن تستطيع معى صبرا »

فتمتمت الجدة تستغفر الله ، ورمت الفتاة بنظرة امتعاض ، أما الحاج فقال

— دى تضحك دى ؟ ياسلام !. دى تبكّى !. دى تدل على أن الله سبحانه وتعالى لا تجرى إرادته الا لحكمة . .

فوضعت حواء الملعقة من يدها ، أو أن الملعقة سقطت من يدها على غير عمد منها ، وهمت بأن تصيح فى وجه الحاج المتحمس « اذا كان موسى وهو نبى ، عجز عن معرفة إرادة الله فيما رأى بعينه فقط . . ولم يستطع عليه صبرا فكيف بها هى . . وهى ليست من النبوة فى شىء . . وقد أجرى الله عليها ارادة غامضة حطمتها تحطيما . من لها بخضر آخر يجلو لها الحكمة ، ويحل لها اللغز . . ومن يلومها إذا لم تستطع عليه صبرا . ! ! . . » ولكن حواء تمالكت جأشها فى لمح البصر ، ثم قالت وهى

تبتسم :

— رمزى بك وصف نجية دى أحسن وصف ...

قال انها بقرة آدمية ..

فقال الحاج وقد طرب

— الله ! الله أكبر .. أحسن وصف .. بقرة آدمية تمام .. من غير شك

وتركت حواء الجدة والحاج يتحلّبان المنى بانفراج الشدة ، واستلقت على سريرها ، فلم تنتبه إلا على صوت موسيقى الجيش وقد صدحت فى بيت العرس . وبداهة أنها دعيت الى حفلة الزفاف ، فقامت تتأهب لها يعاونها أهل المنزل أجمعين ، ويحلق فوقهم صوت الخادمة .

وفى معمعة الحفلة ، جعلت حواء تذهب وتجىء .. تساعد فريدة هانم فى مشاغلها الجمة .. ويحدث أن يصادفها الباشا فيهش لها ويقول « أدى يومك ... اشتغلى . اتعبى .. تتعب لك يوم فرحك . » فتبتسم

وتمضى فيما تكون فيه . وتصادف أن انفردت برمزى فى غرفة فقال لها :

— ما رأيك

— دى حفلة بديعة . بديعة جدا

— ولكنى أقول لك بصراحة . . .

وتوقف رمزى عن الكلام هنيهة من اهتياج مشاعره . . فشاعت الفوضى فى احساس حوا مما عسى سيصارحها به ، وجمدت مكانها الى أن قال رمزى

— أقول لك بصراحة أنى . . خائف كالاطفال

فثابت حواء الى حسها ، وتضاحكت وهى تقول:

— أوه . . هون عليك . . دلوقت تنتهى المظاهر دى المثيرة للاعصاب ، وتكون مع عروستك.. وأنا طبعا اقدم لك أخلص التهانى ، وأرجو لكم كل سعادة وهناء . .

واهتز صوتها عند النهاية بنبرة عجيبة . . ولم تستطع

ووهت قواها فارتمت على مقعد قريب

عند انتهاء كلامها الا ان تقبله فى جبينه . . قبلة حمّلها الفتى معنى الأخاء ولو أن حرارتها لم تخف عليه ، وود لو ان حواء لم تفعل ذلك . على أنه شكرها وانصرف فى خجل

اما هى ؟ !

فقد قبلته أخيرا ! . تلك القبلة التى كانت تفتديها بحياتها ! ! ووهت قواها فارتمت على مقعد قريب . . . وكأنما تلقفتها أجنحة ملائكة راحت تغنّيها ، وتشرف بها على نعيم الخالدين . . .

وعادت حواء الى دارها قرب منتصف الليل ، فانسلّت الى غرفتها دون أن يستشعر بها أحد ، وأسرعت إلى الصندوق الذى كانت أخفته . فأخرجت منه ثوبا وطرحة من حرير ابيض ، وأكليلا من زهر الليمون ، وسرعان ما صارت فى هيئة العروس . وجمدت فى مكانها حينا . ورفعت عينيها إلى السماء . وراح قلبها يقول « رب انى لن أكون كابليس حين غمضت عليه حكمتك فعصاك

ولـكننى أرتمى فى أحضا ك طيعة طاهرة ! ثم عمدت إلى طاولة صغيرة الى جانب السرير فاختطفت من فوقها زجاجة .. ولبثت أمام المرآة حينا تصغى إلى صوت خفى يهتف بها « لا تزيدى عدد النقط ، ولا تسرفى فى استعمال هذا الدواء ، فان الا كثار منه يؤذى القلب ، وقد يوقفـه . . اجعليه للضررة القصوى » ولـكنها فى طرفة عين اجترعت مافى الزجاجة كله ! ! . .

وبينا كانت الجدة تداعب « سروراً » فى احلامها

وبينا كان الحاج يصمم على أن يطلب من حواء ثمن قفطان جديد له بمناسبة شفائها

وبينا كانت نجية تعانق طيف ابن الجزار

كانت حواء مستلقية على سريرها فى هيئة العروس تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وفى أذنيها صوت المغنيات ينشدن لرمزى وعروسه انشودة الزفاف .

(تمت)